رواية

طفولة محتلة

العنود مرفق

طفولة محتلة

رواية

العنود مرفق

من بين الركام وجدت قصتي

- روايـــــــــــة: طفـولة محتلـة
- للكـــاتبـــــة: العنـود مرفـق
- تصميم الغلاف: العنـود مرفـق

رقم إيداع:
(37) 2025م/1446هـ

للتواصل مع الكاتبة:

إيميل: Kaitookid492003@gmail.com

إنستغرام: AL_49200@

@AL_49200

الطبعة الأولى: 2025م

حقوق الطبع محفوظة لدى الكاتب ولا يجوز طبع الرواية أو جزء منها بأي وسيلة دون موافقة خطية من الكاتب، ولا يجوز استعمال أو اقتصاص أي جزء من الرواية إلا بتضمين اسم الرواية أو الكاتبة.

الإهـــــــداء

إلى منال...

وللعينين الناعسة

تحت تهديد الهجوم

إلى أبطال روايتي

ولأرواح الشهداء

والمرابطين في الثكنات

وتحت ركام الأحجار

إلى صناع أمة المجد الفلسطينية.

مقـــــدمة

تبدأ الحروب

فتكون ضحيتها الأطفال

تدمر نفسياتهم، وأجسادهم،

تبدأ الحروب

فيُشرد طفل

وتُيتم طفلة

ويموت الآخر،

تبدأ الحرب

لتصنع حرباً مأساوية

لتصنع دماراً عقلياً

ومعارك عاطفية،

وفي الحروب

تبدأ حروب لا متناهية.

بسم الله الرحمن الرحيم

تغرد العصافير وتنشر الشمس أشعتها في الصباح الباكر ويمتلئ الشارع ببهجة وحيوية الأطفال، وكعادتها كل صباح تجري ببطيء وبحركات متناغمة لشراء بعض الحلوى، ريشيل ابنة التاسعة، ذات العينين الخضراء والشعر بلون الذهب وصاحبة الوجه المرصع بالنجوم، الذي يضيف لملامحها تميز فريد.

ريشيل: صباح الخير آنسة ليفي.

ليفي: صباح النور جميلتي ريشيل.

ريشيل: هل يمكنني الحصول على بعض الحلوى؟

ليفي: بالطبع عزيزتي، تفضلي، وأوصلي سلامي لأمك.

ريشيل: حسناً آنسة ليفي، وهذه نقود الحلوى، الى اللقاء.

تجري سريعاً للمنزل، غير آبهة بنداء الأصدقاء للعب، فهي منشغلة بالحلوى التي تمتلكها.

لا تدري بما يحصل وبما كان مقدراً لها في ذلك الصباح من حزن.

ريشيل: أمي لقد عدت الى المنزل اليوم سريعاً، أمي، أمي...

غرفة مضرجة بالدماء واللون الأحمر القاني يملؤها، متناثراً بالأرجاء كطرطشة الماء عند الغسيل، جثتين لزوجين في منتصف الثلاثينيات من العمر وصغيرة أصبحت وحيدة في عالم كبير.

دموع تتساقط، وشهقاتٍ تتوالى، وصرخات مكتومة على وشك أن تعلو، أمي، أمي،... أبي، أبي...

يا إلهي... أرجوكِ أمي افتحي عينيكِ لقد عدت سريعاً لم ألهو هذه المرة في الشارع دون أذنٍ منكِ.. أرجوكِ أمي، أعدكِ بأني سأستمع لكلامكِ، سأكون مطيعة من اليوم، فقط افتحي عينيكِ.

أبي لن أزعجك مرة أخرى، لن أوقظك من نومك في الصباح الباكر، أرجوك أنهض من سيقول لي بأني ملاكه وأني كشمسه والقمر، من سيتغزل بنمش وجهي، بعد تنمر أطفال حارتنا، أبي لا تتركني لقطع الشارع المليء بالسيارات بمفردي.

أغمضوا أعينهم للمرة الأخيرة، وتركوا قطعة من السكر لتذوب أو تتماسك في هذا الصراع الدامي، ففي ٢٠ .أكتوبر. ٢٠١٥ صعدت روح والدي ريشيل إلى السماء بذنب وقوفهم مع الحقيقة ونصرتها، وتبريراً لقتلهم ولقبح تصرفهم، قالوا ذنبهم ما كان إلا بسبب تمردهم على نظام المستعمرة ومناصرتهم لأعدائنا.

القائد: ابحث في البيت جيداً، اقتل أي شخصاً قد تراه أمام ناظريك

الشرطي: سيدي تقول السجلات، أنهم يمتلكون طفلة

القائد: ابحث عنها سنغسل دماغها بما يخدم مصالحنا ونجعل منها مجندة لمستعمرتنا

الشرطي: حسناً سيدي، لك ذلك.

حائرة ووحيدة يجتاح الحزن قلبها، طفلة لا تفقه الحرب ولا السياسات، في حالة ذهول وصدمة.

ريشيل محدثة نفسها: ماذا سأفعل الآن، هل أبقى مع والداي، أم أسلم نفسي للشرطي فقط.

تخطو بحذر وهدوء شديد، لتتملص من بين أجسادهم الكبيرة التي لا تمتلك أية إنسانية، تجري بأقصى سرعة تمتلكها تسابق الرياح دونما وجهة فقط الهرب من بين قتلة والديها.

حلت الظهيرة بشمسها شديدة السطوع لتحرق بشرة العابرين، ريشيل مستمرة بالسير حتى خطرت على بالها تلك السيدة اللطيفة التي كانت تزور والدتها كثيراً وفي الفترة الأخيرة على وجه الخصوص، السيدة زينب، امرأة في منتصف الخمسينيات من العمر، تمتلك ابنتين إحداهما تزوجت وانتقلت إلى سوريا والأخرى إلى لبنان وابنين الأول ذهب لإكمال دراسته في مصر، والآخر شهيداً من الغارات الإسرائيلية.

وفي أزقة الشوارع تمشي منهكة القوى، حتى وصلت الى منزل "الدراري" حيث السيدة زينب، التي كانت كأم لوالدة ريشيل.

بوابة من الخشب العتيق ومدقة نحاسية قد وضع الزمان عليها أثره حتى أصابها تغير اللون، وبيتاً بسيطاً من دورين، قد شحب لونه وتغيرت ملامحه بسبب مرور الوقت وتقلب الطقس.

وضعت ريشيل يدها على المدقة وقلبها قد تحول إلى مضخة من الخوف والهلع، لا تدري ماذا تقول أو تجيب، يدها أصابها البلل من التوتر الشديد

وعيناها بدأت تلمع بفعل تجمع الدموع، طفلة تفقد والديها وتراهم بحالة يرثى لها في دمائهم متروكين، وشرطة تتوعد الإمساك بها، وبلا مأوى أو حضنٌ ترتمي إليه من هول مصيبتها، مشردة في الشارع تمشى حائرة الثبات، فلم تعد قدمها تستطيع الوقوف وعينيها لم تستطع منع الدموع من النزول، تبكي بكاء شديداً وحزيناً.

أماه أين تركتني

وللعابرين رميتني

الدمع أحرق مقلتي

والمشي أوجع أصابعي

طفلة تمشي بلا هدفٍ

والشمس تحرقها

وبشرطة كانت كعلقمٍ

تمنعها حتى من الحزنِ.

ريشيل ذات النجوم أهلاً بكِ يا ابنتي ما بال خدك تملأوه الدموع، ولم تطرقين الباب وتفترشين الأرض مقعداً لكِ

تعالي يا صغيرتي، أخذها السيد زكريا وربت على ظهرها بحنوٍ بالغ ومسح على رأسها لِطمّأنتها لم يكن يعرف بإنه قد شرع لدمعها النزول من جديد ولصوتها بالعلو.

لم يعرف كيف يهدئ من تنهيداتها المرتفعة، أمسك بيدها وأدخلها معه الى البيت.

زكريا: زينب.. يا زينب

زينب: إنني في المطبخ أُعد وجبة الغداء

زكريا: أمهليني من وقتك لحظات

زينب: حسناً، إني آتية.

تستمع لحديثهما دون وعي بما يقولان فقط تسمع أحرفاً وكلمات، ليس لها رغبة بالحديث أو حتى بالتركيز على معنى الكلام.

زينب: ريشيل! أهلاً وسهلاً بكِ يا صغيرتي أين والدتكِ أم أنكِ جئت بمفردك يا جميلتي.

نوبة بكاء جديدة، وصراخاً مبحوح، وغياب عن الوعي، لتسقط أرضاً.

في أحد بيوت المستعمرة وتحديداً في غرفة المعيشة، رقية ذات الشعر الكستنائي وعيون البن اليمني، فلسطينية الأصل، أُخذَت عنوة في الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة " أغسطس ٢٠٠٥ " وتركت المستوطنات للسلطة الفلسطينية، طفلة لم تبلغ الرابعة من العمر تُؤخَذ من أحضان والدتها لأحضان الغسيل وجلي الصحون في المطابخ أية طفولة هذه!!.

وأي ذنب قد فعلته طفلة أربعة أعوام لتحرم من طفولتها وتساق إلى منزل يملأ سكانه البغضاء والشؤم.

لتصبح خادمة، بعد أن ولدتها أمها حرة، وبعد أن ولى زمن العبودية وانتهى بمجيء خير خلق الله حبيبنا المصطفى صلوات الله عليه وسلم، الحروب مأساة واقعية لكنها إجرام في حق الطفولة وطغيان شديد الفساد.

ترش سائل الغسيل على الطاولة وتمسحه بقطعة القماش القطنية لتنتهي من هذه الطاولة وتذهب سريعاً لإعداد وجبات الطعام، ولن تنسى الذهاب لشراء الحاجيات من السوق ومقابلة صديقها الأحمق "سيكر"

رقية: سيدة شيل سأذهب لشراء الحاجيات.

شيل: حسناً وأسرعي فليس هنالك داعٍ لإضاعة الوقت في تفاهاتك أيتها الفتاة الحمقاء.

رقية تحدث نفسها: لن تستطيع يوماً واحداً التوقف عن سرد محاضراتها أثناء خروجي يا إلهي من هذه العجوز.

شيل: هل تسمعين ما أقول أم أن كلامي يذهب مع مهب الرياح؟!

رقية: أسمعكِ جيداً سيدة شيل، سأعود بمجرد أن أنتهي، وبأسرع ما يمكنني.

تذهب رقية إلى السوق بعد أن رمقتها شيل بنظراتها الكريهة وكثيرة الاستحقار، وكأنها لم تترعرع في بيتها على الأقل.

السماء صافية والجو لطيف وحرارة الشمس خفيفة، تأخذ شهيق لتستعيد ضبط أعصابها، بعد أن أتلفتها شيل وتزفر الهواء لتخرج معه كل غضبها. يا لها من عجوز! أتمنى أن ترمى في نيران شديدة الاشتعال...

قبلة على خدها تباغتها من سيكر، لقد فاجأتني سيكر!، قالت رقية.

سيكر: لا بأس يا عزيزتي يجب أن تعتادي فهذه طباعي.

رقية: يجب أن تتعلم، فليس الجميع على هواك.

سيكر: دعيكِ من هذا الآن، أخبريني ماذا فعلت بكِ شيل هذه المرة.

رقية: لا جديد يذكر، كعادتها وعادة طبائعها.

سيكر: هل سنحظى اليوم بجولة أم أنكِ لن تستطيعي؟

وبأسلوب متقن من سيكر محاولاً استمالة رقية أردف قائلاً: فكما ترين أصبحتِ منشغلة عني في الآونة الأخيرة وكأنك تهربين مني.

رقية: أيها المراوغ لقد أصبحت مكشوف الطباع عندي، لكن حسناً سنذهب اليوم إلى أي مكان قريب.

سيكر: هذه هي فتاتي ذات عيون القهوة.

بعد أن أخذت الأغراض اللازمة لحاجيات للمنزل، ذهبت للتجول مع سيكر، مستمتعة بجمال السماء وصوت تراقص الأشجار، لتباغت بمجموعة من المراهقين الأكبر سناً منهما، يعترضون طريقهما بحركة واضحة؛ لبدء شجار أو سرقة.

دق الرعب أطراف سيكر ولم يعرف أين يتوجه.

سيكر: رقية يبدو أنهم مجموعة من المشردين والنشالين.

رقية: أرى ذلك، لكنهم قلة تستطيع مهاجمتهم بمفردك، مع قليل من المساعدة مني.

سيكر: ماذا؟! ألا ترين أشكالهم، حتى إن أحدهم يمتلك سكيناً.

رقية: يبدو أنني مع أحمق وليس رجلاً، ماذا تريدون منا؟! مخاطبة لأولئك الفتية، ليجيب عليها أحدهم

نريد جميع ما تحمله أيديكم وتملأ به جيوبكم.

رقية: وإن لم نسلمكم!

الفتى: سنجعل منكم متعتنا اليوم، ونريكم كيف سيكون ذلك.

سيكر: حسناً سأعطيكم كل ما نملك، فقط دعوني وشأني.

رقية: سيكر أيها الأحمق، إنها أغراض السيدة شيل، من أين سأشتري لها بدلاً منها، وأنت تعلم أنني لا أمتلك النقود!

سيكر: هذا ليس شأني إنه شأنكِ بمفردك، خذها جميعها، وهذه النقود التي أمتلك، أما هذه الفتاة لا تملك شيئاً.

تسارع رقية بخطواتها نحو سيكر والفتى الواقف بجانبه لتسحب حاجيات منزل السيدة شيل من يدي الفتى، معلنة بدء مشاجرة بالأيدي.

الفتى الآخر: حسناً دعها تأخذها لنرى الآن كيف ستفلتين من قبضتنا جميعاً بينما أنتِ بمفردك.

تلوي رأسها يمنة ويسرة للبحث عن سيكر، ليجيبها الفتى: لقد تملص صديقك الجبان ونحن نتحدث، إنه ذكي لمعرفته بعدم القدرة على مواجهتنا، لكنك تتمنعين عن الاستسلام، لذا هيا أريني كيف ستنجي.

راجعاً إلى البيت بعد أن أخذ معلومات لحركة حماس من أحد الأصدقاء والمصادر الموثوقة، مغرداً بتصفيرة كصوت العصافير، ليرى مجموعة من مراهقي اليهود مشكلين دائرة بأجسادهم الرخوة على فتاة وحيدة وكما يبدو بأنها ليست إسرائيلية، حتى وإن كانت لا ينبغي لهم كشبان القيام بهذا التصرف غير الأخلاقي، لوهلة كاد ينسى أصلهم اليهودي، وأخلاقياتهم المنحطة، وأن هذا مجرد فعل روتيني من حياتهم اليومية، لكن أصله الشرقي، ودينه الخالد في قلبه لم يتركه يتجاهل هذه الفتاة ذات القوام الهزيل.

يتحرك مسرعاً باتجاه دائرة الأجساد البشرية ليسحب أحدهم ويركله على بطنه، وسرعان ما يوجه له اللكمة الثانية على فكه، ويرفع رأسه ليضربه على الأرض مجدداً بعد سقوطه الأول بفعل الركلة الاولى.

يتجمهر الفتيان نحوه، وتخترقه أعينهم المتوهجة بالشر والحقد ليُسأل: ما شأنك يا هذا؟!

ليجيب هشام الفتى البالغ من العمر ١٦ حرباً وحصاراً، ذو الشعر اليالي حالك السواد كحال بلدته، والعينين الناعستين وكأنهما وردة أصابها الذبول: أهكذا تتصرف الرجال أيها الاسرائيلي ذو العباءة السوداء والقبعة الصغيرة بمنتصف الرأس وزنارين كضفائر النساء؟ هل تثبت رجولتك وقوة عضلاتك المترهلة على فتاة؟!

وتبدأ مشاجرة مليئة بألفاظ الشارع، والكثير من اللكمات والركلات، لتنتهي هذه المشاجرة بسحب رقية ليد هشام والجري بعيداً بعد أن أُنهِكت قواه، وسأل الدم من أنفه و شفتيه، تحت ظل إحدى الشجر،

تقوم رقية بمسح الجروح من وجه هشام بكُم ثوبها الرمادي، والنفخ عليه، وتطهيره ببعض المياه كمحاولة لرد الجميل الذي قام به من أجلها، و كانت تلك أول مرة في حياة رقية تشعر بالامتنان لشخصاً ما؛ لأنها أول مرة يقف في صفها أحدهم، ويدافع عنها دون أي تردد أو شك، بعد أن كانت تُقوبل بالاضطهاد والتعنيف من سكان منزل شيل، حتى وإن لم تكن مخطئة لكنها كانت تتلقى العقاب والتوبيخ المستمر من السيدة شيل.

رقية: شكراً لموقفك النبيل، ومساعدتك لي دون حتى أن تعرف ما قد حصل.

هشام: ديني الذي لم يسمح لي بتجاوز فتاة تحتاج مساعدة في مثل ذلك الموقف.

رقية: ما دينك؟ ألست يهودياً مثلنا!

هشام: حاشاني الله من هذا الطريق والمنحنى. لست يهودياً إنما مسلماً على دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبقية الرسل والأنبياء السابقين.

رقية: وهل أي شخص من دينك قد يفعل مثل ما فعلت؟

هشام: كل مؤمن لن يرضى بترك فتاة في ذلك الموقف، وشتان ما بين المسلم والمؤمن.

رقية: حسناً ما الفرق؟

هشام: الإسلام يعني التسليم بألوهية الله وحده، وأن لا إله غيره، ويعني دخولك في دين الإسلام وتطبيق أركانه الخمسة: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

أما الإيمان فيعني الاعتقاد المطلق بربوبية الله وبتصديق أركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره إيماناً لا يخالطه شك أو ريب.

رقية: يبدو بأنه دين جيد لكن لِمَّ الجميع يقف له بالعداء والهجاء.

هشام: المعذرة منكِ، فالوقت بات يداهمني، وإلا كنت حدثتكِ عن الكثير ولكن قبل أن أرحل هل لي أن أحظى بمعرفة اسمك؟

رقية: اسمي رقية.

هشام: يا له من اسم جميل يبدو بأنكِ من أصل فلسطيني.

رقية: لي حكاية طويلة لكنني لن أؤخرك أكثر، أخبرني باسمك إن لم تمانع.

هشام: هشام.

رقية: حسناً إلى اللقاء يا هشام، أراك مرة أخرى.

تسارع خطواتها فمؤكداً بأن السيدة شيل ستوبخها بشدة وستجعل من جسدها كيساً للملاكمة لإفراغ غضبها.

تفتح الباب وتدخل مقدمة رأسها للتأكد من الوضع لكنها لا تسمع شيئاً سوى حركة الستائر بفعل هبوب الرياح على النوافذ المفتوحة.

تتحرك بكل خفة وهدوء باتجاه المطبخ، لكنها لا تسمع أية حركة أو صوت، تضع ما في يدها لتجد ورقة وضعت على رف الخزانة مفادها ألا تصنع وجبة الغداء لخروج الجميع من البيت.

رقية: يا للراحة، من الجميل عدم تواجد السيدة شيل، وكأنني الآن فوق السحاب أعيش، الهدوء آه ما أجمله.

غرفة بيضاء ورائحة الأدوية والمعقمات تملأ المكان، أصوات المسعفين وضجيج محركات السيارات وأجهزة الإنعاش، وفتاة فقدت ملجأها وحضن كان يغرقها بالحنان ونغمات صوت كانت لها الأمان.

تنام ريشيل على أحد الأسِرّة وبجانبها السيدة زينب وزوجها السيد زكريا تدعوا لها وتقرأ بعض من آيات القرآن الكريم.

اللهم إني أعيذها بك من كل شيطان رجيم، ومن كل سوء ومكروه، اللهم اعصم قلبها وشدد أزرها، اللهم ارحم واغفر لوالديها، مخاطبة السيد زكريا قالت: يا لحسرتي عليها كيف ستواجه العالم القاسِ، مستعمرة ظالمة تبيد كل من يقف بوجهها، وطفلة ثكلى لا مجتمع يرحمها ولا دولة تأويها وأسرة قد نبذت لتحيزها مع الحق، زكريا أنا سآوي هذه الفتاة عندي سأربيها وأجعل منها ابنةً لي، سأعلمها تعاليم الإسلام، وألحقها بمدارس المسلمين، لتنشأ نشأة صالحة بعيداً عن الاحقاد الصهيونية، فما زالت طفلة، ولن أجعل من قتلة والديها أن يأخذوها لمصالحهم.

زكريا: لم يرحموا أطفال غزة وهم يبيدونهم كل يوم، ولم ترق قلوبهم لسماع بكاء الرضع، إنما زادتهم وحشية فوق وحشيتهم، ونفسيتهم المتعطشة للدماء باتت تريد المزيد، لكن سأجعلكِ تأوينها كرماً لأهلها الذين ماتوا بسبب دفاعهم عنا.

زينب: سأغير اسمها لرشاء بدلاً من ريشيل، وأتمنى ألا تمانع ريشيل هذا لا

أريد لها الاذية أو نظرات لؤم من الآخرين، أريدها أن تشعر بإنها جزء منا لا أن تشعر بالدونية أو النبذ.

(أغسطس . ٢٠٠٥)

شيل: سآخذ هذه الفتاة وأجعل منها خادمة لي لتقوم بأعمال التنظيف والطباخة وغيرها من الأعمال المنزلية، فكما يعرف الجميع فأنا ليس لدي ابنة، وإنني بحاجة لمن يقوم بمثل هذه الأعمال التي باتت ترهقني.

أحد الضباط الإسرائيليين: حسناً سيدة شيل، أصبحت لكِ.

تمسك بيدها بعنف وغلظة حتى كادت تهرس أصابع الطفلة في يدها وتسحبها معها باتجاه المنزل وكأنها بالغة وليست طفلة صغيرة ذات أربعة أعوام، لا تستطيع تحمل تلك المسافة الطويلة، أو المشي بهذه السرعة الكبيرة، لكنها أصبحت مع عجوزاً يملأ قلبها الشر والغل لهذه الجماعة ولهذا الدين.

في المطبخ تعد لنفسها وجبة غداء لذيذة فلقد استحقتها بعد تلك المخاطرة، وذلك العراك الذي كاد قلبها أن يهبط من شدة خوفها منه، لقد كانت ستتلقى التوبيخ الشديد والصفعات المتوالية من شيل وربما الطرد من المنزل لفقدانها الحاجيات، أو كانت ستصبح أضحوكة وكرة ركل لأولئك الفتية المقرفين ذوي الزنانير، تضحك بصوتٍ عالٍ لتذكرها وصف هشام لأولئك الفتية، وكيفية سخريته منهم وتلقينهم درساً للرجولة.

"لقد استحقوا أكثر من ذلك أما الأحمق سيكر فسأنهي معه كل علاقة تربطني به، حتى إن رأيته في الطريق سأتجاهل وجوده، يقول ما شأنه بي!! ... حسناً لا شأن يربطني به أيضاً، يهودياً قذر يهرب دائماً وقت المعارك، الخوف والجبن صفتان تلازمانه، كم أتمنى لو إنه بقي ليتعلم الشهامة والشجاعة من هشام، ولربما حصل على ما يستحقه من لكمات وصفعات" رقية محدثة نفسها.

الشمس في وقت الأصيل معلنةً رحيلها غير الطويل، وهو يمشي سريعاً ليوصل الأخبار إلى المخبأ، بعد يوم منهك، وسفر طويل مشياً على الأقدام، وفي طريق العودة إلى البيت ماراً من أمام منزل السيدة سلمى لتناديه: هشام.... يا هشام!

هشام: أهلاً سيدة سلمى، كيف أنتِ؟

سلمى: بأحسن حال والحمدلله، هل مازلت توصل الأخبار للحركة؟

هشام: نعم وعسى أن أفيدهم بإيصالي الأخبار إليهم.

سلمى: حرسك ربي ورعاك، فالحرب أخذت منا كل عزيزٍ وغالٍ، يبدو أنك متعب لن أطيل بالحديث، إلى اللقاء، وأوصل سلامي لوالدتك.

هشام: حسناً سيدة سلمى، إلى اللقاء.

يفتح الباب الذي قد تهالكت أخشابه وتآكلت، ويبسمل لدخول المنزل الذي بات كشيخٍ أصابه العجز، وأصابت ملامحه التجعد.

تصفف سارة شعر والدها، يقبل رأس أبيه وينطق بالسلام على أخته ويدخل إلى المطبخ ليقبل رأس والدته، قائلا: أمي السيدة سلمى تسلم عليكِ.

الأم: سلمك الله من كل شر يا ولدي، أنتظر كي أضع لك العشاء.

هشام: حسناً، سأذهب لأغتسل وأعود.

زياد: جزاكِ الله خيراً يا ابنتي، اذهبي الآن لمذاكرة دروسكِ.

تقبل رأس والدها وتسأله أتريد الذهاب إلى الغرفة الأخرى يا والدي؟

زياد: نعم، أريد أن أستلقي لأرتاح قليلاً.

تمسك بقبضتي الكرسي المتحرك، لتنقله إلى الغرفة الأخرى وتساعده على الانتقال إلى السرير.

(٢٧_ ديسمبر _ ٢٠٠٨)

كريم ... أين ذهب الفتى ... كريم، يصرخ حتى تكاد حنجرته تخرج من مكانها: كريم! ... يصرخ مجدداً بعلو صوته: كرييييم!.

يتنقل بين الحارات المنكوبة، وبين الأنقاض والمنازل المهدومة بفعل غارات شنتها إسرائيل، منازل لم يتبقى منها شيئاً سوى أكوام من الحجارة المكسورة، وبقايا أثاث تالف، والكثير من الجثث المنتشرة هنا وهناك وكأنها مجرد حجارة لا بشر.

أعضاء الجرحى متناثرة وكأنها رماد منثور، والكثير الكثير من الدماء، السماء حمراء والنيران تلتهم كل ما يعترضها، وصرخات الناس تدوي في المكان بين متألم وباحثٍ لفقيد، الطفل هنالك يصيح، والأم تبحث عن ولدها، الابن يبكي ألماً نصف جسمه تحت ركام الحجارة، والآخر يبكي

فقداً لأمٍ لم يجدها، والأخ يبحث عن أخيه الذي لم يجد سوى يده ذات الشامة الكبيرة وبقية الجسم مفقود، الأب يبكي على فقدان عائلته بأكملها، والآخر يرثي ابنا كاد يزفه فرحاً.

وزياد يصرخ ويجري ينادي: كريم!!

غارة أخرى وصوت الإنذار يزداد علواً، نيران أخرى!، وانفجارات تهز المدينة هزا،... انهيار مبانٍ أخرى، وصرخات أقوى، وبكاءً يزداد ألماً.

الإسعافات لا تكفي الجميع، والأطباء عاجزون عن إنقاذ هذا الكم من الناس، الباحثين في الأنقاض قلة يحتاجون المزيد من المساعدين.

وغزة تُدمَر بفعل صهيونٍ، والعرب نائمون في بيوتهم تحت تبريد المكيفات والأضواء المريحة والهدوء.

المستشفيات مليئة بالجرحى، وثلاجات الموتى لم تعتد تتسع، والعويل في الشوارع والمنازل، أطفال يتموا، وزوجات رملوا، والأمهات ثكلى، والقلوب أصبحت خاوية كجسدٍ بلا روح.

هشام يسرع إلى الخارج بعد أن طال غياب والده للبحث عن أخيه، يبحث ويبحث دون جدوى ليعود إلى البيت خالِ الوفاض من أية معلومة قد تهدئ من روع أمه، زوجٌ غائب وفتى مجهول المكان، تبكي خوفاً وقلقاً عليهما.

وبعد يومٍ صعبٍ مليء بالدعاء، وليلةٍ من السجود لله، تذهب والدة هشام إلى المشفى بعد تلقي اتصال من قريبها بعثوره على زوجها في المشفى.

مسرعة مع ابنها الكبير هشام، في درجات المشفى صعوداً ونزولاً؛ للبحث عن شريك حياتها، وسندها في تربية أولادها، لتجده مستلقٍ على أحد الأسِرّة، مغطى بغطاء المستشفيات الأبيض، ووجهه حزين ومتعب، ويحكي الكثير بصمته المكسور.

تمشي إليه بلهفة الشوق والقلق في آن واحد، تمسك بيديه بخوفٍ بادٍ على ملامحها، زياد!، ما بك؟ وأين هو كريم؟

تستاء ملامح الأب ويزداد تألمه، ليخبرها: لقد مات كريم.

لتبكي وتولول وتصرخ: ابني.... ابني... كريم يا فلذة كبدي.

وتتساقط دموعها ودموع كلاً من زوجها وابنها الآخر في صمتٍ يحرق قلوبهما، لتسأله مرة أخرى، ما الذي أصابك يا زياد؟!

لتزيد القلب حرقته وتكويه بنار الفقد لأبنه وقدميه.

تفتح غطاؤهُ لترى ذلك المشهد المروع الذي أخرسها، وأوقف الدمع بأعينها، لقد أصبح زوجها مقعداً فقد رجليه وابنه، كسره أكبر من كسرها، وحزنه فاق حد حزنها.

لتغطأه من جديد وتمسح دمعات عينيها وتقول: لله ما أخذ ولله ما أعطى، إنه طيراً من طيور الجنة، سنلتقيه في يوم الحساب، وأسأل من الله الصبر والعصمة لقلبينا، زياد لا تحزن، إنما هذا ابتلاء من الله لك، وزيادة لك في الأجر والحسنات، فيجب عليك أن تحمد الله وتصبر وتحتسب الأجر إن شاء الله.

يمسح دمعاته المتساقطة التي لم تتوقف عن النزول كلما مرت بباله هذه الذكرى أو الفاجعة المؤلمة، ويردد الحمدلله في السراء والضراء ولربما كان هذا دفعاً لبلاءٍ آخر.

عائدة إلى البيت وبحضنها ريشيل تمسح على رأسها وتقرأ بعضاً من آيات العليم، وتنزل إلى البيت وقد أعدت لريشيل غرفة لتنام فيها واشترت لها بعض الملابس.

ريشيل يا ابنتي هذه ستكون غرفتكِ من اليوم يمكنكِ القيام بما تريدين فيها، ومن اليوم سيكون هذا بيتكِ، ولك حرية التصرف فيه، سأكون لك ما تريدين أماً أو حتى جدة.

سأنقلك إلى المدرسة القريبة من البيت وسأغير اسمك إن لم تمانعين.

ريشيل: ماذا ستسمينني يا خالة زينب.

زينب: سأسميكِ رشاء، هل يعجبك الاسم؟

ريشيل: رشاء!... رشاء، إنه جميل.

زينب: إذاً تفقنا، هاتِ يدك لنتصافح رمزاً لاتفاقنا يا رشاء.

رشاء: هاكِ يدي لنتصافح يا خالة زينب.

تقبل خديها ورأسها، الآن نامي يا صغيرتي كي تستعيدين طاقتكِ.

(٢٠٠٥)

بعد أن سحبتها إلى المنزل بقسوة بالغة الشدة تجاه طفلة حرمت ظلماً وعدواناً من حضن والدتها وقبلات والدها، تتناقش مع زوجها وأولادها بشأن هذه الفتاة.

شيل: لقد أحضرت هذه الفتاة من معسكر التجنيد النسائي، لمساعدتي في أعمال المنزل.

زوجها: وأصلها عربية مسلمة!

شيل: نعم، فمن ذا الذي سيترك طفلة أربع سنوات لتكون خادمة!

أحد أبنائها: وهل تركها أهلها؟؟

شيل: بل أخذها جيشنا في أحد هجماته أثناء مغادرة المستوطنة.

الابن الأخر: ولم تجدي سوى هذه!!

زوجها: كنت سأختار لكِ أفضل منها، وأكبر سناً، لكنك وكما تعلمين عقلية الفلسطينيين فلن يقبلوا بالعمل لدينا حتى وإن دفنوا إحياءً، لذلك أحسنتِ صنعاً بأخذكِ لهذه الطفلة.

أحد الأبناء: ما اسمها، وبنظرات خبيثة تتفحص تلك الطفلة، أم ينبغي أن أسميها أنا.

لتجيب شيل: لن أعطيها قيمة أكبر من حجمها دعها كالغريبة بيننا باسم ليس كأسمائنا، دعها عندما تكبر تدرك بإنها مجرد خادمة ليس لها قيمة ومنبوذة من قبل الجميع ممن في حاراتنا، لكيلا يعتقدون بأنها منا أو أنها من أصل ديانتنا، أو عندما تكبر يتناسون من هي ومن أين جاءت.

زوجها: كما هو متوقع منكِ يا زوجتي العزيزة، ذات عقل حكيم ورزين ومتزن، وتوفرين علينا الكثير من الأموال.

ابنها: إنك جيدة حتى في الاختيار، وجميل بما إنه ليس لديك ابنة دعيها تقوم بكل الأعمال يا أمي.

شيل: وهذا ما سوف يحدث.

في صباح يوم مشمس خارجة من البيت، وكالعادة تشتري الحاجيات للمنزل، تمشي بهدوء واسترخاء لتزيل عنها عناء بقية اليوم المتعب لتُغطى عينيها في حركة سريعة، وسرعان ما تزيل اليدين عن عينيها بعنف، لتستدير مواجهة وجه سيكر ما الذي جاء بك، ومن أنت يا هذا؟!

سيكر:.!!

علامات الدهشة والاستغراب تجلت على ملامحه، ليجيبها: من أنا؟!.. هل هذا سؤال موجهٌ لي يا رقية؟!

تجيبه وهي تكز على أسنانها محاولة التحكم بغضبها: نعم لك أنت يا هذا، شخصاً مجهول، فلتدعني وشأني وكفى.

سيكر: لمَّ؟ ماذا دهاكِ يا رقية.

رقية: أنا فقط أعدت كلامك لذلك اليوم.

سيكر: لقد كان هجوماً مباغتاً، لم أكن أعني ما أقوله حقاً.

رقية: لكنك قلته للنفاذ بنفسك لم تهتم بما قد يصيبني، والآن دعني وشأني فلا أريد التأخر أكثر

سيكر: حسناً لك ذلك.

تذهب للبائع وتشتري من هذا وذاك وفي أثناء عودتها ذهبت للتنزه، حتى وجدت نفسها في مكان بعيد ومصادفة وجدت، مبنى كبير من طابق واحد وذو قباب وصومعة كبيرة أثارها فضولها لاكتشاف هذا الدور، ترددت

قليلاً، ولكنها دخلت وما أثارها حقاً هي الصفوف المتراصة من الرجال بشكل منتظم وقيامهم جميعاً بنفس الحركة وقوفاً وركوعاً وسجوداً أدهشها هذا المنظر الغير مسبوق لها رؤيته، ولكن ما إن أنهوا صلاتهم ورأتهم يهمون بالمغادرة حتى تداركت وضعها وخرجت، ولكن أعين شخصاً ما رأتها وربما لم يكن الوحيد، تسابق خطواتها مبتعدة عن ذلك المكان الذي جذبها بجماله وجمال نظام من بداخله، إنه مبنى جميل ليس كالكنيسة التي وكأنها فصول دراسة، وليس كمزارات التقرب للهندوس والبوذيين، إنه رائع مليء بالروحانية وتشعر بالراحة ما إن تطأ قدمك ذلك الصرح، زفرت كل الهواء الذي في جوفها واستنشقت الهدوء والطمأنينة التي أحست بها.

تسمع صوتاً يناديها: رقية... رقية!

تتجمد قدمها خوفاً ممن قد رآها وهي تدخل هذا المبنى التي لا تعرف حتى اسمه.

يقترب منها يناديها مجدداً: رقية. تستدير لرؤية المنادي، فيتهلل وجهها وتزفر بارتياح: هشام!

رقية: لقد أخفتني للغاية.

هشام: لماذا؟

رقية: إن علمت الآنسة شيل ذهابي إلى هنا دون علمها فسأحصل على عقاب وخيم، أما عن دخولي ذلك المبنى، فلن أستطيع توقع ما سيحصل لي من شرورها.

هشام: أعانكِ الله، ولكن هل تريدين مني أن أدخلكِ هناك دون أن يراكِ أحد؟

رقية: وكأنها تفكر وهي سعيدة بداخلها، فتجيب لا مانع في ذلك. إنها سعيدة ولا تدري ما سبب السعادة هذه.

هشام يمشي أمامها وهي خلفه تتأمل الشارع، فجأة وقف لتصطدم بظهره، آه رأسي، ما الذي حصل، لماذا وقفت؟

هشام: ادخلي من هذا الباب وسيتقبلكِ جميع من في الداخل.

رقية: وأنت لمَّ لا تدخل!

هشام: أنه قسم خاص بالنساء.

رقية: أي أنه يمنع دخول الرجال!.

هشام: نعم إنه كذلك.

رقية: هيا، فلتحاول الدخول معي. وترمش بعينها كثيراً محاولة استعطافه.

هشام: لا يجب دخول أي رجل في هذا المكان، جميع من في الداخل لطفاء، لن يسيء أحد إليكِ.

رقية: حسناً.

تحاول التماسك والثبات وتدخل إلى تلك الغرفة لتتفاجأ بأن هناك مدخل آخر وغرف أخرى، وحمامات كثر، وغرفة طويلة مفروشة بالسجاد الأحمر واللون البيج، هذا شيء جديد عليها، إنها مندهشة من

ذلك الجمال الآخذ، ومن رغبة البكاء التي اجتاحتها، وشعرت كأنها تعرف ذلك المكان مسبقاً.

ترددت في حرج بالغ، لدخول ذلك المكان، وخاصة أن جميع النسوة هناك متماثلات الملبس، برداء طويل يغطي سائر الجسد مع القدمين وذو أكمام طويلة إلى الرسغين وغطاء لشعر الرأس، أحبت ذلك اللبس كثيراً وكأنه يعطيك حرية لمنع الآخرين من رؤية جسدك وشعرك، وجعلك تتمتع بخصوصية ليست موجودة لدى اليهود.

واقفة على الباب لم تتجرأ الدخول، حتى سمعت صوتاً أنثوياً بجانبها، تفضلي بالدخول ولكن ينبغي عليكِ أولاً خلع حذائكِ بجانب الأحذية هناك.

رقية: أه بالطبع، تتوجه لخلع حذائها، وتعود لتدخل بجانب تلك الفتاة التي انتظرتها.

الفتاة: حياكِ الله، هل أنت زائرة أم أتيتي للصلاة؟

رقية: أاااا، بل زائرة وهي أول مرة لي.

الفتاة: حسناً، تعالي كي أُريكِ المكان.

رقية: شكراً، هذا من لطفك

الفتاة: بل هذا من دواعِ سروري، حسناً دعينا نبدأ من الخارج أولاً.

هنا نضع أحذيتنا وهو ممر لإيصالك إلى المسجد، ومن هنا أماكن الوضوء والحمامات، ولا يدخل المسجد إلا من كان طاهراً ومتوضأ، هل يمكنني تعليمك الوضوء إن لم تمانعين؟

رقية: أممم، حسناً لا بأس بذلك.

الفتاة: أولاً لابد من طهارة جسدك، ثم الوضوء ثانياً ويبدأ باستحضار النيّة، فلا يصحّ الوضوء إلّا بنية رفع الحدث الذي منع من العبادة.

- التسمية بالله، وهو أن تقولي: بسم الله الرحمن الرحيم.

- غسل الكف ثلاثاً.

- المضمضة، وتعرّف المضمضة بأنّها إدارة الماء في الفم، ويُستحبّ تكرار المضمضة ثلاث مرّاتٍ.

- الاستنشاق، وهو اجتذاب الماء بالنفس، ويُستحبّ تكرار الاستنشاق ثلاث مرّاتٍ.

- غسل الوجه ثلاثاً، من أعلى الجبهة إلى أسفل الذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويُستحبّ غسله ثلاث مرّات.

- غسل اليدين إلى المرفقين ثلاثًا، ويكون الغسل من الأصابع إلى المرفق، ويستحبّ غسلها ثلاث مرات ونبدأ باليد اليمنى ثم اليد اليسرى، إتباعاً بنبينا صلى الله عليه وسلم.

- ثم، مسح الرأس والأذنين.

- غسل القدمين، ويستحبّ ثلاث مرات، من الرجل اليمنى الى الكعبين، ثم الرجل اليسرى كذلك.

- ثم ندعو بدعاء النبي بعد الوضوء: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك اللهم وأتوب إليك.

وبعد هذا تكونين جاهزة للصلاة، فقد أصبح وضوءكِ مكتمل.

رقية: إنه جميل وكأنني أزيل قبيح الكلام من أذني وأطهر لساني بعد أي حديث سيئ.

الفتاة: بالطبع هو كذلك، طهارة للقلب والجسد.

رقية: هل يمكنني سؤالكِ عن اسمك.

أجابت الفتاة بابتسامة خجولة: اسمي سارة.

رقية: يا له من اسم جميل، ويا لروعتك وروعة ابتسامتك.

سارة: شكراً لإطرائك اللطيف، وأنتِ ما اسمك؟

رقية: رقية دون أية زيادة.

سارة: هل تعنين بأن اسمك الكامل هكذا!

رقية: نعم، فأنا مجرد عاملة في منزل الحاخام.

سارة: حتى وإن يكن ذلك، فلكل منا كيانه الخاص ونسبه وعائلته.

رقية: ربما كذلك بالنسبة لكِ، لكني دون عائلة، كل ما أعرفه هو عائلة السيدة شيل فقط.

سارة: لابد لكِ من أصلٍ وعائلة تنتمين إليها.

رقية: لنفترض ذلك، فأين هم؟! وهل يترك المرء ابنته خادمة في منزل الآخرين!...

ربما تخلوا عني، وربما هكذا مصيري.

سارة: ربما توفاهم الله، أحسني الظن بعائلتك، فلربما فقدت منهم أو ربما كنتِ أسيرة لحرب عدوانية.

رقية: حسناً يبدو أنني تأخرت كثيراً، إلى اللقاء.

سارة: أتمنى أن نلتقي بأقرب وقت.

بعد أن ودعت سارة، ظلت تفكر في طريق عودتها إلى المنزل هل حقاً يوجد لدي عائلة؟

هل لدي أب وأم كالجميع، هل لدي إخوة وأخوات، هل اسمي سوف يكتمل؟، أ سألتقي بهم أم هم في جوف الأرض؟، وخيالها سار بعيداً ليفكر كيف سيكون اللِقاء، وباتت تشعر بمحبة وإخاء لو كان لديها أخوة وأخوات، وتستشعر جمال كلمة أمي وأبي وتحاول نطقها بصوتٍ عالٍ.

وعند وصولها إلى المنزل، تتفاجأ بنظرات السيدة شيل الموضحة شدة الغضب، والنظرة الدموية التي أصبحت تراها بها، شعرت بأنها على وشك الموت، من خوفها ومن ملامح السيدة شيل، حتى أنها كادت تبكي من شدة الخوف، لتسمع صوتاً باتت تكرهه مؤخراً، يقول: لقد عادت الآنسة رقية من مساجد المسلمين، فلتحضروا لها حجاباً يا سادة.

نظرات تشفي، وحقد يطغوا ملامح سيكر، هل تريد أن أدعها وشأنها حسناً لا بأس بهدية الوداع.

بعد أن قابلها في الشارع و أخبرته بأن يبتعد عنها، شعر بحقد يغلي في صدره عليها، هل تريد تركه هكذا بكل بساطة وهي مجرد خادمة في منزل الحاخام، فتاة غير معروفة الأصل، وهو الوحيد الذي خالطها وأصبح صديقها، وقبل بها وهي بحالتها الرثة هذه، وهي بكل أنفة وغرور تريد تركه عندما يحلو لها، وفي وسط تفكيره بها تمر من أمامه ذاهبة إلى شارع آخر، يمشي ببطء بعدها ليرى أين ستذهب، وهي التي لم تذهب مسبقاً إلى أي مكان مجهول، وغير ذلك هي لم تذهب بمفردها مطلقاً لطالما اعتادت على مرافقته لها أينما ذهبت، تقطع الطريق إلى شارعٍ آخر، ويستمر باللحاق بها، حتى رآها تدخل المسجد، صعق من هول ما رأى، لكنه برر ذلك بأنه مجرد فضول منها، حتى رآها تخرج فانفرجت أساريره، و لم يكمل راحته، إلا وراها تلحق برجل، متجهة نحو مبنى آخر تابع لهذا الجامع، و تدخل فيه!!

صدمة أخرى، ظل يراقب ذلك الرجل حتى أبتعد عن ذلك المبنى، وذهب سريعاً ليسأل عن ماهيته، ليكتشف الخبر الذي زلزله، مسجد نساء!! ... ولمَّ تذهب رقية إلى مسجد المسلمين؟!

أ أسلمت؟! ... وأخذه عقله للتفكير أكثر فجأة أرادت تركه والآن تذهب إلى المسجد!

بماذا تفكر هذه الفتاة؟ وأي جنون قد يجعلها تذهب إلى مساجد المسلمين، أم يا تراها فقدت عقلها.

يجب وضع حداً قبل أن تتمادى أكثر، يجب أن أخبر السيدة شيل بهذا، حتى إن أرادت رقية تركي فسيكون هذا بمثابة انتقام ساحق منها.

يسابق خطواته باتجاه منزل السيدة شيل، وقلبه يكاد ينفجر من الغيظ والحقد.

عائدة إلى المنزل بكل أريحية العالم، لا تدرك المأساة التي تنتظرها، تفتح الباب وتتفاجأ بوجه السيدة شيل المتجهم، وعيونها التي تطلق شرار الغضب، وكأنها أسهم قاتلة، ليتحدث سيكر ببجاحة لا تناسب سواه، وسخرية مقيتة منه لتلك الواقفة على باب المنزل تنتظر مصيرها الدموي والمأساوي، الذي سيحدث من شيل، تهب شيل نحوها بسرعة البرق، تغمض رقية عينيها بخوف ورعب ليلتفت وجهها إلى الجهة الأخرى، بفعل الصفعة القوية التي تلقتها من شيل، ولم تكتفي تلك العجوز بذلك فقط، فقامت بسحبها بشعرها وصعدت بها إلى العلية، وقامت بإدخالها في غرفة متسخة وصغيرة وانهالت عليها بالكثير من الصفعات والعديد من الركلات، وازداد جنونها أكثر فأخذت مضرب البيسبول الذي هناك وبأقوى ما تملك تسقطه على جسد رقية، وتتلفظ عليها بأقذر الألفاظ والكلمات السوقية، وبعد أن تعبت من ضربها خرجت مغلقة باب الغرفة بالمفتاح.

تبكي ألماً، وخوفاً ووجعاً، إن كان لي أهل فما كان حالي هكذا، ولم أكن لأضرب وأظلم، ولم تكن حالتي هكذا يرثى لها.

بعد أن رأى وحشية السيدة شيل أحس سيكر بالشفقة والندم تجاه رقية وأدرك سبب تمسكها بالأغراض وزعلها منه.

خرج من المنزل خائفاً عليها، وخائفاً من شر السيدة شيل أن يصاله، متوجساً من خبرٍ قد ينقل لأهله فهذه زوجة حاخام معروف.

تحدث أمها عن الفتاة التي زارت المسجد اليوم، وعن كونها لا تعرف عائلتها، وجعلها خادمة من قبل أصحاب المنزل، وأنها تشفق عليها كثيراً، وتتمنى أن تساعدها، هل تعرفين يا أمي يجب أن أزورها أو بالقليل أعرف مكان سكنها، لا يجب أن نتركها بمفردها.

لتجيب الأم: سيكون الله في عونها، وسيجبر الله قلبها ويجمعها بأهلها إن كانوا على قيد الحياة، إن أردتِ الذهاب لمعرفة أخبار عنها، عودي سريعاً واحذري من غدر اليهود وكيدهم، وإن أحسستِ بالخطر فلا تجازفي، أسمعتني؟، فأنا أعرف طباعكِ جيداً وحبكِ للمخاطر.

سارة: حسناً سأذهب مبكراً في الغد.

الأم: فلتذهبي أنتِ وأخاكِ لكي يساندكِ.

سارة: ليس هناك مانع، سنذهب كلينا.

حل المساء ولا زالت حبيسة في الغرفة، تخرج أهاتها وجعاً، أصاب قلبها المليء بالجروح كحال جسدها الذي يسيل الدم منه، وكدمات الدم المحترق بداخل جلدها قد أصبحت مثل الوشوم تلون نواحي جسمها، وكسور عظامها، كآمالها المكسورة في واقعها البائس.

مريضٌ بلا إسعاف

وجسد بلا روح

وجثة على قيد الحياة

هنا روح تكابد للخروج

وجسد قد تهالك بالجروح

ونفس قد ترامتها الحياة

ودم باح له النزول على الدوام

هنا طفل يتيم الأم يتيم الحضن

له أب لم يره، وعائلة كطيف عابر

له عالم، له حياة لم يعشها هنالك

خلف أسوار الحصار

هنا التجريح والتنكيل يشكو

بفرط استعماله الدائم عليها.

دون طعام، أو حتى لحاف يقيها شدة هذا البرد، على أرضية خالية من أية سجادة أو أي قطعة قماش، مراهقة بعمر ١٤ قهراً وإهانة، وحيدة دون ملجأ أو سند، دون رأفة أو ود، تصارع بمفردها، جميع الأثقال هذه التي حملتها على ظهرها، ستكون أجراً إن شاء الله لها، وسيبدل حالها ويريها العوض في الدنيا قبل الأخرة.

في منزل السيدة زينب وتحديداً غرفة رشاء تتأمل غرفتها في براءة ولطف، فتقوم بفضول طفولي بفتح الخزانة لرؤية الملابس التي أحضرتها لها.

السيدة زينب، وبمرح يبرز على ملامحها، أخذت ثوب تلو الآخر لتجربتها، وبفرحة الأطفال وعند ارتدائها لذلك الفستان الذي أحبته دارت على نفسها كي ترى فستانها عندما ينتشر بطوله من حولها، وأخذت تضحك بصوت عالٍ وتتقفز فرحة بجمال فستانها وبقية الثياب.

هكذا الأطفال تفرحهم أبسط الأشياء كثياب أو قطعة حلوى، حتى أنها قد تنسيهم آلاماً كبرى، لكنها لن تشفيهم ولن تنزع الحزن من قلوبهم وسرعان ما يذكرون من جديد، وعند كل مرة ينطق اسم ذويهم، تنساب دموعهم.

أما السيدة زينب ذهبت إلى المدرسة لتسجيل رشاء وإخبارهم بقصتها لكي تعامل بطريقة ملائمة، فهي حديثة حزن ويتم، ولكي تقبل دون شهائدها السابقة لصعوبة الحصول عليها، وأثناء عودتها إلى المنزل مرت بالسوق واشترت رداء المدرسة لرشاء مع حقيبة صغيرة تناسبها.

صباح يوم جديد مشرق ومليء بالتفاؤل، يدل على أن الحياة في تجدد مستمر، وأن لا شيء يبقى على حاله، قد يكون محمل بالمسرات والسعادة للبعض، وحزين للبعض الآخر، ولكن ذلك لا يعني دوامه؛ فكل شيء قابل للتغير والانحلال.

صداع يثقل رأسها بعد نوبات البكاء المستمرة، وألمٌ ينهك جسدها بأكمله، تحاول الجلوس ولكنها تشعر بالإعياء؛ لعدم تناولها الطعام ليومٍ كامل، تستسلم لتعبها وتستلقي مجدداً تنظر لسقف الغرفة بتفكير وشرود، إلى متى سأتحمل هذه المعاملة؟، أنا لست حيوان كي أتبعها فقط، أنا إنسان لي كيان ولي قلب واحد لتحمل هذا العدوان الجائر من شيل وأولادها، إنها بشرية لها عقلٍ ولها تفكير ورأي، ولكن كيف سأتخلص منها وإلى من سأذهب فأنا لا أعرف أحداً سواها، تتذكر شعور الطمأنينة الذي شعرت به في المسجد وكيف أنها شعرت بالسلام والراحة التي لم تشعر بها في هذا المنزل قط. لكن مرارة الواقع تحطم حلاوة الخيال، فتوقف تفكيرها وتغمض عينيها محاولة النوم مجدداً.

بعد تعرفها على رقية في اليوم السابق ومحبتها تنهض مبكراً حتى تبحث عنها وتجدها في وقت أسرع، "هشام... هشام... هيا سنذهب إلى مشوار خاص، أنهض سريعاً وتجهز بينما أرتدي ثيابي"، سارة موجهة الكلام لهشام.

ترتدي ثيابها بأسرع ما يمكنها وتأخذ حقيبة اليد وتخرج من الغرفة إلى أخيها: هشام هل أنت جاهز؟

هشام: لمَّ كل هذه العجلة؟ لم تدعيني أتناول طعام الإفطار.

سارة: إنه مشوار أهم، وستتناول طعامك بالخارج.

هشام: حسناً، هيا بنا.

تخرج من البيت برفقة أخيها هشام وفي أثناء طريقهما تحدثه عن رقية وعن معاناتها في ذلك البيت وبأنها تنوي الذهاب للبحث عنها أو عن مسكنها.

هشام: سارة، هل كنت تنوين الخروج للبحث عنها دون أن تعرفي منطقة سكنها حتى؟!

تجيب سارة بوجه خجول ومحرج: نعم فلقد قلقت عليها فقد كانت بالأمس خائفة من ربة المنزل على تأخرها.

هشام: من حسن الحظ إني أعرف منطقتها وسنبحث هنالك عن أي خيط قد يؤدي إليها.

سارة: جميل جداً، وبحماسها المعهود تسرع في المشي كي تصل بأقرب وقت.

وفي حارات الحي الذي وجدها فيه هشام يتمشى ببطء وحذر، فجميع سكان الحي من المستعمرين الإسرائيليين وهو ليس بحاجة لشجارٍ آخر وأخته معه، فقد يجعلوا منها نقطة ضعفه وهذا متوقع منهم،

يتحركوا يمنة ويسرة لمحاولة سماع اسمها أو رؤيتها ولكن دون فائدة، ازدادت حرارة الشمس وأصبح الوقت ظهراً وسارة وهشام أصبحا متعبين، فما كان منهما سوى العودة إلى المسجد للصلاة ومن ثم إلى البيت.

تفتح باب منزلها وبيدها المشتريات تنادي: رشاء، رشاء ... تعالي يا صغيرتي، انظري هذا رداء مدرستك الجديدة، وهذه حقيبة ظهر تناسبك أليس كذلك؟

رشاء: يا للروعة إنه جميل للغاية خالة زينب، شكراً لكِ.

زينب: بل إنه من دواعِ سروري، وستذهبين من السبت القادم للدراسة.

رشاء: يا للمتعة، فأنا أحب المدرسة كثيراً، ولطالما أردت تغيير تلك المدرسة، ففيها الكثير من التنمر، ولكن خالتي أنا أعرف أن ديانتنا مختلفة، فهل سيقبلونني بينهم، أم إني سأكون وحيدة وبمفردي.

زينب: لا تقلقي يا عزيزتي فهم لطفاء.

رشاء: حسناً أتمنى ذلك.

زينب: إذاً الآن اسمحي لي سأذهب لإعداد وجبة الغداء.

رشاء: هل يمكنني يا خالة أن أخرج للعب في الشارع؟

زينب: أممم، حسناً ولكن إن أساء أحدهم لكِ، فأخبريني.

بابتسامة طفولية تجيبها بحسناً.

تخرج إلى الشارع، فترى الكثير من الأطفال، فتتردد لوهلة وسرعان ما تذهب للتعرف عليهم بسبب طبعها الاجتماعي والجريء.

رشاء: أممم، مرحباً يا أيها الأطفال، هل يمكنني ألعب معكم؟

الكثير من العيون المدهوشة الموجهة نحوها والتعابير المختلفة الظاهرة على وجوههم، لتجيب إحدى الفتيات: كلا، فنحن لا ندخل الغرباء بيننا، ويبدو أنكِ لا تجيدين اللعب إلا بالدمى المحشوة بالقطن.

رشاء: ذلك غير صحيح.

الفتاة: بلى وذلك ظاهراً على وجهكِ فليس فيه أي أثر للعب في الشارع أو لجرحٍ قديم جراء انزلاقك أثناء اللعب.

رشاء: ذلك لا يعد سبباً للقول بإني لم ألعب في الشارع، ولكنني لست كالبعض، لا أحافظ على نفسي من الأذى. وتراها بنظرات الشماتة والغرور.

ليجيب أحد الفتية هناك مخاطباً رشاء: حسناً سنجري لعبة ولو فزتِ بها أيتها الفتاة، سندعكِ تلعبين معنا وإن لم تستطيعين الفوز فلا مكان لكِ للعب بيننا.

رشاء: حسناً، موافقة.

الفتى: وسأختار أنا اللعبة.

رشاء: لا بأس بذلك، ولكن لابد لي من معرفتها مسبقاً.

الفتى: بالتأكيد.

وبعد قليل من التفكير أختار لعبة الخريطة.

شرح اللعبة:

لعبة ينقسم فيها اللاعبون إلى فريقين غير محدد عدد كل منهما، فقد يكون لاعب واحد لكل فريق أو أكثر.

الفريق الأول يقوم بالاختباء والفريق الثاني عليه أن يجد الفريق الأول، يقوم الفريق الأول برسم خريطة توضح نقطة البداية ومكان الاختباء ونقطة النهاية وطريق الذهاب والعودة.

بعد رسم الخريطة عليهم التوجه من نقطة البداية إلى مكان الاختباء بحسب الطريق المرسوم في الخريطة، والانتظار هناك بضع دقائق، ومن ثم العودة حسب طريق العودة. إذا نجحوا بالعودة دون أن يراهم الفريق الثاني يعتبر الفريق الأول هو الفائز.

بينما دور أو مهمة الفريق الثاني هي قراءة الخريطة المرسومة من قِبَل الفريق الأول أثناء محاولتهم الهرب، بعد قراءة الخريطة يذهب الفريق الثاني للبحث عن الفريق الأول في مكان الاختباء الموضح بالخريطة، غالبا ما ينقسم الفريق الثاني إلى مجموعتين مجموعة تبحث من طريق الذهاب والأخرى من طريق العودة على أمل لقاءهم أثناء عودتهم، ويظلوا في عملية البحث في أثناء انتظار الفريق الأول في مكان الاختباء. إذا استطاع أحد أعضاء الفريق الثاني العثور عليهم يقوم بالتصفير أو برفع صوته قائلا 'خريطة' عدة مرات خريطة، خريطة، خريطة... وذلك لإعلام أعضاء فريقه بأنه تم العثور عليهم، وعليهم التوجه لنقطة النهاية بأسرع ما يمكن، لأنهم يفوزون فقط إذا وصلوا لنقطة النهاية قبل الفريق الأول.

فيسرع الفريقين لنقطة النهاية وأول الواصلين إليها يعتبر فريقه هو الفائز.

الفتى: تعرفينها أليس كذلك؟

رشاء: بالطبع، لكن هنالك مشكلة، فأنا لا أعرف هذا المكان بل إنها أول خرجة لي من المنزل هذا، فكيف تريد مني لعبها؟!

الفتى: ليس من شأني هذا، ولكن سأمهلك ٣ دقائق قبل البدء ويمكنك فيها التعرف على هذه الحارة.

رشاء: لا بأس، ولكن قبل هذا دعنا نرى من سيكون الباحث.

الفتى: حسناً، سأقوم برمي الجنيه إلى الهواء وسأدع كل منكما تختار وجهاً قبل ذلك والوجه الذي سيكون الجنيه عليه سيكون هو البادئ في الهروب.

رشاء: أنا الرسم.

الفتاة: وانا الرقم.

يرمي الجنيه إلى الهواء بإصبعيه ويمسك بها قبل أن تسقط، الجميع ينظر إليه بأعينٍ فضولية؛ لمعرفة من ستكون البادئة، والجو يملأه الحماس، هل ستنضم هذه الفتاة إلى اللعب معهم أم أنها ستظل تشاهدهم بصمت وترافق المنزل.

يفتح يده فيرى أنه الرسم، وبهذا حددت الأدوار.

تتمشى في أنحاء الحارة لتعرف الأماكن والأزقة، وتعود سريعاً قبل انتهاء مدتها.

وبتصفيرة من الفتى تعلن بداية اللعبة.

تغمض الفتاة عينيها على جذع الشجرة، وترسم رشاء في الأرض خارطة ذهابها إلى المخبأ والعودة منه، وتنطلق مسرعة إلى المخبأ، الجميع في حالة تصفيق، لا يعرفون إلى أي فريق ينحازون ومن سيشجعون ولكن المقربين من الفتاة يصرخون باسمها بصوتٍ عالٍ، أفنان... أفنان... أفنان، أفنان عسلية العينين وبشرة أصفى من اللبن ذات شعر ترابي ناعم وطويل ترفعه إلى أعلى وتضع عليه ربطة الشعر، لتستعد للبحث عن رشاء.

انتهى وقت الهرب وابتدأ وقت البحث تنظر إلى الخريطة بتمعن وتهب واقفة للجري متتبعة رسم الخريطة ومع تصفيق المشجعين وصراخ المقربين وجري أفنان تظهر رشاء مهرولة بأسرع ما تستطيع وتتصادم الفتاتين، ولكن ذلك لم يكن عائق فهم كلاً منهما الآن الوصول قبل الأخرى، وتتسابق الفتاتين باتجاه الشجرة لتصل رشاء قبلها بخطوة واحدة فقط، فيعم التصفير والتصفيق كضجيج يعجب الأطفال.

فيقوم الفتى من مكانه معلناً انتهاء اللعبة والسماح لرشاء باللعب معهم من الآن فصاعداً.

الفتى: أهلاً بكِ بيننا، أنا شامخ، أحد أولاد هذه الحارة بل أفضلهم.

شامخ حنطاوي البشرة، بني العينين، وشعراً كدوائر العواصف الصغيرة.

رشاء: اهلاً، وأنا اسمي ريش.... رشاء متداركة لزلت لسانها وللاسم الذي اعتادت عليه وسميت بهِ عند مولدها.

رشاء: إلى اللقاء فلقد تأخرت كثيراً وعصافير بطني تزقزق.

شامخ: هههه، إلى اللقاء.

تعود للمنزل والابتسامة تعلوا محياها، خالة زينب هل انتهيت من طبخ الغداء؟

زينب: نعم يا عزيزتي، ولكن سنضعه عند مجيء زكريا.

رشاء: حسناً، ريثما يأتي سأقوم بتغيير ملابسي، فقد توسخت أثناء لعبي.

زينب: ستنتهي متعة اللعب عند بدء الدراسة، فلن أسمح لكي باللعب إلا أيام العطلة.

وبتذمر الأطفال تجيب خالتي، لم يتبقى الكثير لموعد بدء الدراسة.

زينب: ستنتهي الدراسة سريعاً، واللعب متواجد بأي وقت عند وجود الأصدقاء.

رشاء: على ذكر الأصدقاء لقد تعرفت اليوم على صديق جديد اسمه شامخ، واتفقنا أنه يمكنني اللعب معهم من اليوم، لذلك سأتناول الطعام وأخرج للعب معهم مرة أخرى.

زينب: من الجميل رؤيتك تنسجمين مع الأطفال، إن ذلك يريحني كثيراً.

يفتح الباب ويظهر زكريا، فتقول زينب لرشاء: فلتذهبين لتبديل ملابسكِ بينما أضع الغداء.

يأتي الصباح ويحل المساء وهي حبيسة في الغرفة كأسيرة حرب، لا طعام ولا دفء ولا حتى دواء، محطمة الفؤاد ومكسورة العظام، لا أب يسعفها ولا أمٌ تداويها، أو أخٍ يدفئها أو أختٍ تهدئها، بمفردها فقط ودموعها تتسابق في النزول وصداعها يزداد شيئاً فشيئا.

لم ينام تلك الليلة كما هو معتاد، بل ظل يفكر كيف حالها، يا ترى أيأتي يوم وترتاح فيه من ربة منزلها هل تعذب في ذلك المنزل، وبعد ساعات التفكير، قرر زيارتها في الغد ولو كلفه ذلك الكثير، سيبحث عن بيتها، ويساعدها إن أرادت ذلك.

وفي صباح اليوم التالي أستيقظ هشام من الساعة السابعة للذهاب والبحث جيداً، فلن يرجع هذه المرة إلى البيت إلا بعد الاطمئنان عليها، يخرج وأمه تصنع طعام الإفطار ورائحة الخبز والقهوة يتنافسن في الانتشار، والجبن والزيتون يزين صحون الطعام، وطماطم طازجة تتوسط هذه الصحون.

الأم: إلى أين يا ولدي؟.

هشام: سأذهب للبحث عن تلك الفتاة، وإن شاء الله لن أعود إلا بالأخبار، دعائك يا أمي.

الأم: حرسك الله ورعاك يا بني، وأتاك بالأخبار عنها.

هشام: أجاب الله دعائكِ يا أمي، مع السلامة.

يمشي حثيثاً بخطواته، موجهاً كل تركيزه لكلام الأشخاص في الشارع، لعله يسمع اسمها أو اسم شيل.

وفي الطرف الآخر من تلك المنطقة وتحديداً بالقرب من بائعي الخضروات يجلس على رصيف الشارع بشرود تام مفكراً في رقية وحالها، يشعر بالندم يأكل قلبه، لكنه لن يجرؤ على الوقوف في وجه شيل أو حتى السؤال عن حال رقية، وإذا به يسمع البائع ينادي باسم شيل فينصت لحديثهما.

البائع: سيدة شيل، كيف حالك، وأين رقية؟ إنني لا أراها مؤخراً

شيل: إنها متعبة قليلاً.

البائع: أوه، أتمنى لها الشفاء، ستأتي غداً بطاطا طازجة من المزرعة، هل تريدين أن أخصص لكِ سلة؟

شيل: لا، فغداً سأسافر ولن أتي إلا بعد أسبوع على أقل تقدير.

البائع: سفر سعيد.

سيكر محدثاً نفسه إنها فرصتي، ولكن ماذا إن عادوا، آه مني، ويا لي من جبانٍ.

بعد بحث مدته ٣ ساعات وصل إلى سوق الخضار وقد أنهكه التعب ولحسن الحظ ربما أن سيكر مازال هناك.

هشام: مرحباً، هل يمكنني سؤالك؟

سيكر بنظرات تأفف وضجر ينظر لهشام: أخبرني ما عندك فأنا في مزاجٍ سيئ.

هشام: أين هو منزل السيدة شيل؟

سيكر: وما الذي تريده من تلك العجوز الحقود، إنها سيئة الطباع، ويستحسن لك العودة من حيث أتيت.

هشام: أريد معرفة أحوال الفتاة التي تعمل في منزلها.

فجأة يتذكر سيكر أنه رأى رقية مع هذا الفتى أمام المسجد.

ليقول بكل جدية، هل يهمك أمرها، أو هل يمكنك مساعدتها فهي في حالة يرثى لها.

هشام: ماذا حل بها؟! وأين منزلها؟

سيكر: إنها في منزل السيدة شيل زوجة حاخام هذه الحارة.

هشام: ينظر له ببلاهة ويجيب، أولاً لا يهمني حتى إن كانت في منزل رئيس مستعمرتكم، ثانياً أنا لا أعرف منزل شيل.

سيكر: بما أنني كنت سبباً في حالتها هذه فسوف أساعدك، ولكنها حبيسة في المنزل ولن تستطيع زيارتها أو الحديث معها.

هشام: ماذا سأفعل إذاً، وكيف يمكنني الوصول إليها؟، أريد أن أطمئن على حالها.

سيكر: تطمئن على حالها!! إنني أخبرك بإنها حبيسة وفي حالة يرثى لها، ماذا تريد أكثر من هذا.

هشام: أريد مساعدتها بحل يفيدها ويقطع التعذيب هذا عنها.

سيكر: فلتأخذها ولتهرب من جحيم هذا المنزل الذي لا يطاق العيش فيه.

هشام: سنفكر في ذلك، ولكن كيف ستخرج منه؟!

سيكر: الحل عندي، السيدة شيل ستسافر غداً، وغالباً لن تأخذها معها أو لربما هذه السفرة مخصوصة للتخلص منها.

فيجب أن نخرجها من المنزل اليوم، فإن كان سفراً عادياً كان نجاة لها من حبسها المتواصل، وإن كان سفراً لأجل التخلص منها فقد نجت بروحها.

هشام: حسناً، والآن تعال معي لتريني المنزل، ونضع خطة محكمة للهروب.

سيكر: على الرحب والسعة.

وتحت شمس الظهيرة يمشيان باتجاه منزل رقية التي فاق منها التعب أقصاه، ولم يبقى لموتها إلا انقطاع نفسها.

سيكر: هل ترى ذلك المنزل الملون بالبيج والبني، وذو نجمة داؤود.

هشام: كل البيوت هنا بهذا الوصف، أعطني شيئاً أكثر دقة.

سيكر: هو البيت الوحيد الذي توجد به عُليه.

هشام: لقد رأيتها، ولكن أين يمكن أن تحبس، هل تعرف كم عدد غرف المنزل.

سيكر: لا أدري ولكن على الأرجح ٧ غرف.

هشام: كم تملك أولاد.

سيكر: ٤ أحدهم في سفر منذ مدة طويلة

هشام: على الأرجح بأن ٤ لأولادها، وإحدى الغرف لها والسادسة لرقية والسابعة غرفة معيشة.

سيكر: رقية كانت تنام في المطبخ.

هشام: أممم، من المؤسف معرفة كيف عاشت هذه الفتاة، على ما يبدو بأنها حبيسة في العلية.

سيكر: أتوقع ذلك، فتلك العجوز حريصة على هدوء أولادها ورفاهيتهم، مدللون وكأنهم فتيات.

هشام: حسناً، سآتي الليل وسأحضر معي سيارة في حالة أنها غائبة عن الوعي، وأنت ستحاول اختلاق الأعذار والحجج للدخول إلى منزل شيل؛ كي تلهيها قليلاً عن التركيز على الأصوات أثناء هروب رقية.

سيكر: ولكن كيف يمكنها النزول من العلية.

هشام: سأجعلها تقفز، أو تنزل عبر فتحات النوافذ

سيكر: هل أنت أحمق؟ إنها فتاة كيف يمكنها أن تنزل عبر فتحات النوافذ والتسلق، وماذا إن كانت غائبة عن الوعي أو جسمها يملأه الكسور.

هشام: إذاً لابد لنا من الدخول إلى المنزل.

سيكر: أفكارك كلها تقودني إلى الجنون، إنه منزل حاخام إن لم تكن تعرف.

هشام: إذاً هل أتركها هناك حبيسة؟!!

سيكر: لا أدري، ولكن مثلاً وصدقت لجنونك، كيف سنفتح قفل العلية؟ أو إذا لم تكن هناك؟

هشام: لا بأس، القفل سآتي بأداة لفتح الأقفال، وإن لم تكن هناك سنبحث في جميع الغرف.

سيكر: إن هذا الجنون بذاته، تبحث في جميع الغرف، هل تحسب أنك في بيتك.

هشام: الشجاعة تتطلب المغامرة، وهذه شيم الرجال.

سيكر: حسناً، حسناً، سأفعل ذلك سأتخلى عن خوفي هذه المرة، فبسببه فقدتها وأتمنى الآن أن تسامحني فقط، حتى لو كان يعني ذلك خسارتها، ولكن لم يعد للندم مكان فقد كنت أنا المتسبب بحبسها.

هشام: اتفقنا، سآتي الليل بحلول الساعة الثانية عشر ليلاً، وسنلتقي في هذا المكان.

سيكر: حسناً، لأجلها سأفعل ذلك.

أتى السبت وحان موعد الذهاب إلى المدرسة، وبما أن رشاء لا تعرف الطريق وجديدة على هذا الحي فستوصلها السيدة زينب اليوم إلى المدرسة.

زينب: رشاء هيا بنا يا حبيبتي، سنتأخر على مدرستكِ.

رشاء: حسناً يا خالة زينب، لحظة واحدة كي أضع لي دبوس الشعر الذهبي.

زينب: رشاء ليس هنالك داعي للمزيد من ربطات الشعر أو الدبابيس.

رشاء: أريد أن اكون أفضل فتاة في الصف، لقد انتهيت.

تمسك بيد السيدة زينب وتمشيان رويداً رويدا، حتى أوصلتها إلى المدرسة، ولم تطمئن السيدة زينب حتى أدخلتها إلى الصف، وأوصت جميع المدرسات عليها.

يمر الوقت ببطء شديد على هشام، والدقائق كأنها ساعات، وقد أحضر سيارة أحد الجيران منتظر لسيكر منذ الساعة الحادية عشر، فلم يستطع قلبه أن يهدأ، فمنذ رحيله من عند سيكر ظل يفكر وعقله منشغلاً بها.

هشام: أخيراً أصبحت الساعة الثانية عشر، وظهر سيكر أيضاً، هذا جيد.

سيكر: مرحباً، هل سندخل الآن؟

هشام: بالطبع هيا بنا.

سيكر: وكيف سنفتح باب المنزل؟

هشام: يا للأسف لم يخطر على بالي هذا.

سيكر: لنحاول بأداة فك القفل الذي معك.

هشام: حسنٌ هيا بنا.

يحاول أن يفتح الباب ولكن دون أية فائدة، الباب لم يفتح وهشام يحاول ويحاول، حتى قال سيكر: لدي مفتاح منزلنا ويبدو بإنه مشابه لهذا الباب سأجرب وأتمنى أن يفتح.

يدخل سيكر المفتاح ويقلبه ولكن الباب لم يفتح، يحاول مرة أخرى ولكن دون جدوى.

فجأة يسمع الاثنان صوتاً قريباً يصدر من داخل المنزل.

فيلتصق كل منهما بالجدار المجاور للباب، وإذ بالسيدة شيل تفتح الباب لتخرج كيس القمامة إلى فناء البيت، ويدخل الاثنان بسرعة إلى الداخل أحدهما فر سريعاً إلى المطبخ، والآخر بجوار الأريكة، تعود السيدة شيل من الخارج متجهمة الوجه فهي لم تعتد أن تقوم بالأعمال المنزلية، أو أن تساعد رقية على أقل تقدير، تقوم بإضاءة المصباح الكبير بدلاً من الأبجورة، وسيكر يكاد أن يفقد وعيه من الخوف، فيدور حول الأريكة بكل حذر، تقعد شيل على الأريكة لتدخن سيجارتها، فتكن فرصة لصعودهما، ينهض سيكر من خلف الأريكة بحذر متوجهاً إلى أعلى بينما هشام قد سبقه ببعض الدرجات، بجانب أبواب الغرف يمشون بخفة شديدة ناحية العلية صعوداً، وعند الباب يتذكر هشام بأنه قد نسي أدوات فتح القفل عند بوابة المنزل، يبحث أكثر بين جيوبه ليجد أحد الدبابيس، ويحاول فتح القفل به وينجح الأمر بعد عدة محاولات.

هشام: الحمدلله، لقد خفت أن تضيع الفرصة، وأضطر إلى النزول مجدداً.

يفتح الباب ويجدها ملقية على الأرض والدماء بجانبها، ولا يصدر منها أية حركة، وكأن الروح فارقتها.

هشام: رقية... رقية!.

لا تتحرك ولا يصدر منها شيئاً، يستمع إلى نبضها فيجده مسموع، ويتحسس نفسها ويجدها تتنفس، يزفر بارتياح مردداً الشكر لله.

أما سيكر فالدموع تتساقط من عينيه فزعاً وخوفاً مما رأى، وقلبه يتآكل عليها وبما سبب لها من أذى.

يحتضنها ويرفعها في يديه للنزول بها من هذا العذاب وهروباً من مأساتها، يسبقه سيكر لرؤية ما إن كانت شيل لا زالت تدخن سجائرها في الدور الأول، أم أنها قد صعدت إلى غرفتها، فينزل مسرعاً ويعود ليخبر هشام بمواصلة النزول، نزولاً كما الصعود مروراً بجانب أبواب الغرف ليفتح باب الغرفة التي أمامهم، وما كان من هشام إلا أن فتح باب الغرفة الأخرى، ودخل وسيكر يتبعه وفرائصه ترتعد خوفاً، لا يصدق كيف لهذا المجنون أن يدخل إلى الجحيم بنفسه ويغامر بدخول إلى إحدى الغرف، وهذا الثور ابن شيل نائم على سريره، يفتح هشام الباب ويطل برأسه ليرى الابن ذاك عائداً إلى الغرفة، وبمجرد أن دخل أسرع بالنزول وسيكر بجانبه ليفتح له الباب، وتذهب رقية من عالم الوحشية، وتغادر عالم الشر هذا ومنزل الظلم والقسوة دون ما عودة.

يسرع هشام باتجاه السيارة ليضعها في الخلف ويجلس أمام المقود ويغادر بأسرع ما يمكنه، بينما سيكر يذهب للمشي في الطرقات ودمع عينيه مستمر بالنزول، والنوم يجافيه هذا المساء، يقول في رثاءٍ حزين على فقدانه لرقية:

الوداع يا زهرة أيامي
يا جميلة المبسم والخدين
ذات عيون القهوة المرة
وضحكة كالبلسم لفؤادي
وصوتاً تغلب برقته وعذوبته
على صوت وتغريد الكناري
الوداع يا رفيقة الحارات
وصديقة المغامرات
يا من فقدتها بحقدي وخوفي ال
الوداع دون وداع لائق بك
أو حتى وردة حمراء
الوداع لمشاعري التي ستبقى
دون شاعرها ومالكها.
الوداع لمشاعرك التي أفنت
بسبب غبائي وضعفي
الوداع يا معذبتي.

وصل إلى المسجد بعد أن أخبر والدته بالخطة، واتفقت مع مسؤولة المسجد بإوائها وتركها للعيش فيه، يطرق باب المسجد، لتفتح له المسؤولة الباب وتتحرك أمامه لتريه أين يضعها، بعد أن جهزت المعدات اللازمة لإسعافها، بعد أن أخبرهم هشام بما قال له سيكر من تدهور لصحتها، يضعها على السرير وهو قلق على صحتها، فتخبره المسؤولة بأن يغادر لتقوم بمعالجتها وإن احتاجت له ستتصل.

عائداً إلى البيت بعد إعادة السيارة لمالكها، يخبر أمه بما حدث، الأم: هشام، لِمَّ لم تخبرني بإن خطتك كانت الدخول إلى المنزل؟، لم أكن لأسمح لك بذلك فللبيوت حرماتها، ومن العيب الدخول إلى منزل الآخرين حتى إن لم يكونوا مسلمين.

هشام: العيب يا أمي أفعالهم ودخولهم إلى أرضنا وأخذ شيئاً ليس لهم، والتصرف الذي قمت به، كان مساعدة لرقية لتخليصها من أفعالهم.

الأم: سأقوم غداً بزيارتها أنا وسارة.

تغرد العصافير بأجمل الألحان، وتتراقص الأشجار طرباً بلحنها، وتسطع شمس الأمل على البشر فتجعل منه صُبحاً رائعاً، وتتحرك السحب لتجعل من السماء لوحة فنية رسمها خالق الأكوان، بشكل بديع متناهي الدقة، سبحان ربي خالق السماوات ومجملها بالكواكب والنجوم الذي جعل منها هداية للعابرين.

بعد مساء متعب للمسؤولة وهي تخيط جروح رقية وتضمد الخدوش، فتتأكد من وجود الكثير من الكسور والتي تدل على استخدام عصا من معدن أو خشبٌ ثقيل والاعتداء بالضرب عليها بوحشية مفرطة وكأنها ليست من بشريٍ لبشري، وكأنها من وحشٍ مفترس أو لربما حيوانٍ من الغابة!

تنهض الصباح وهي تسمع صوت رقية وهي تأن من التعب، فتقوم بإيقاظها وإعطائها القليل من الماء، ولكن رقية شبه غائبة عن الوعي ولا تدرك شيئاً، فتقوم بمساعدتها لتغيير ملابسها لتذهب إلى المشفى.

مستلقية على أحد الأسِرّة تكابد الألم، يضع لها الطبيب الجبائر فلديها كسراً في يدها، وكسرين في ساقها وقدمها، والمسؤولة تقف بجانبها وتخبر الطبيب بالإسعافات التي قامت بها، ويسألها عن مسبب الاعتداء فتخبره بمأساة رقية في تعاطف كبير.

الطبيب: سيأتي نصر الله وسنهزم المحتلين بإذن الله، وسينتقم الله لها منهم عديمو الإنسانية.

انتظري سأقوم بكتابة الدواء للممرض ليقوم بإعطائها الدواء على حساب المشفى.

المسؤولة: شكراً لك يا أيها الطبيب.

الطبيب: لا شكر على واجب.

رقية: أين أنا ومن أنتم، السيدة شيل ستوبخني، كم الساعة؟ يبدو بأنني تأخرت كثيراً.

المسؤولة: لقد أحضركِ هشام من منزلكِ، وأخبرني قصتكِ، إنكِ بأمان لا تقلقي، لم يعد للسيدة شيل وجود.

رقية: وأنتِ من؟

المسؤولة: أنا مسؤولة المسجد التي أتيتي لزيارته اليوم الماضي، وستبقين عندي إن أردت ذلك. اسمي وفاء وعمري ٣٥ سنة أرملة فقدت أسرتي في الهجمات الإسرائيلية ليوم ١٦ من نوفمبر ٢٠١٢، أطفالي الثلاثة وزوجي، وأفراد عائلتي استشهدوا في عام ٢٠٠١ بعد زواجي بعدة أشهر، أعيش في العلية للمسجد النسائي، فلم يبق لي أحد لا أهل أو عائلة لأبقى عندها.

رقية: تعازيّ لكِ.

عند مكتب الاستعلامات للمشفى يسأل عن مكانها وبين ممرات المشفى يمشي برفقة والدته وأخته سارة لزيارتها.

هشام: السلام عليكم، كيف حالكِ يا رقية؟

رقية: متعبة ولكن لا بأس، أخبرتني المسؤولة عما قمت بهِ من أجلي، جزيل الشكر لك، وأدري بأنه مهما فعلت لن أرد لك صنيعك. ولكنني أريد معرفة القصة كاملة منك.

هشام: حسناً، بعد أن تقومي بالسلامة سأخبرك بما تريدين، أتمنى لكِ الشفاء العاجل، إلى اللقاء.

الأم تمسح على شعر رقية وترقيها بآيات الله وتتحمد لها بالسلامة، أما سارة فقد كانت فرحتها عارمة لرؤية رقية مجدداً، وفي الوقت ذاته تشعر بالأسف للحالة التي وصلت لها رقية.

سارة: الحمدلله، على سلامتكِ، آخر المعاناة إن شاء الله.

رقية: شكراً لكِ ولكم جميعاً ولاهتمامكم بي ومساعدتي.

بعد أول دوام في المدرسة تعود رشاء إلى البيت بعد أن أتت لأخذها السيدة زينب.

رشاء: خالة زينب هل يمكنكِ أن تحدثينني عن الإسلام لقد كنت أسمع أهلي يتحدثون عنه كثيراً وكم أنه دينٌ جيد، ويرتب حياة البشر وكأنه نظام لسير حياتهم على المنهج والطريق الصحيح، أريد أن أكون مسلمة وأن أفعل كما يفعل المسلمون دون خوف، لقد أخذنا اليوم في المدرسة آيات من القرآن الكريم لكنني أجهل معناها وأريد مساعدتكِ في حفظها.

زينب: بالطبع عزيزتي سأساعدكِ في حفظ القرآن، وأجعل منكِ مؤمنة تتبع طريق الهداية ومنهج كتاب الله.

فطر الله الإنسان على طاعته واتباعه، ولكن الشيطان وسوس لهم للانحراف عن الطريق المستقيم، فجعلهم عبدة للشمس وللقمر، وللبقر وللإنسان وله أولاً، جعلهم يبعدون ما خلق الله لطاعته وترك عبادة خالق المخلوقات.

تستيقظ من النوم مبكراً تريد الذهاب إلى المطار للسفر وإكمال عملها تذهب للعلية لإحضار بعض الحاجيات ولكن!

تفتح عينيها على صدمة لم تتوقعها، شيئاً لم يكن وارداً حتى في خيالها يصيب وجها التشنج ويرتجف كامل جسدها من الغضب والصدمة، فتحاول تهدئة نفسها لربما كانت بداخل وهي التي نسيت القفل مفتوح، تسحب قدمها سحباً لداخل الغرفة لترى ما يؤكد تفكيرها، نوبة غضب وحريق أصاب قلبها، لم تستحمل رؤية أو مجرد التفكير بأن تقوم رقية بهذا التصرف، لم تدري ما تفعل تصرخ بأعلى صوتها وكأن الجنون أصابها، أيتها اللعينة الخائنة للنعمة، إنها فتاة جاحدة يملؤها الحقد والنكران، هل هكذا تجازينني، هل تقابل طيبتي بالهروب، تلك الفتاة التي لا تستحق حتى الحياة، لو إنني قتلتها عندما أحضروها لكان أفضل، وأية جراءة تجعلها تهرب وهي مجرد حيوان ضال أويته وأدخلتها بيتي بعد أن كانت كالفئران، هذا كله بسبب ذلك الأحمق سيكر، هو من كان يبقى معها عندما نبذها الجميع حتى تعرف قيمتها، أدخل الغرور لنفسها الصغيرة تلك، لكنني لن أسكت سأبحث عنها وسأريها من أكون، ولكني سأبدأ بسيكر عند عودتي من السفر.

بعد مرور عدة أسابيع.

تذهب رشاء إلى المدرسة برفقة شامخ وبعض فتيات الحارة وتعود معهم بعد أن تعمقت صداقتها بهم، وأثناء عودتها من المدرسة.

رشاء: شامخ هل يمكنك اليوم أيضاً مساعدتي في حفظ الآيات.

شامخ: حسناً، ولكن يجب عليكِ أن تقرأي تلك الكتب التي أعطيتكِ إياها.

رشاء: بالطبع إنني أقرؤها كل يوم على جزء جزء.

شامخ: أحسنتِ فكتب التفسير وسيرة الرسول ستعرفك على الإسلام بشكل مفصل وصحيح، وتساعدك على فهم منهج الدراسة وآيات القرآن.

رشاء: نعم، شكراً لك فقد أفادتني كثيراً.

تسرح في خيالها قليلاً فتتذكر:

أمها: ريشيل يا ابنتي بدلاً عن اللعب في الشارع ذاكري دروسكِ.

ريشيل: حسناً يا ماما، ولكن دعيني ألعب قليلاً فقط وسآتي.

أمها: ستتراكم دروسكِ ولن تستطيعين أن تحفظيها كلها ليلة الامتحان.

ريشيل: حسناً يا ماما، ولكن ساعديني في حفظها.

أمها: بالتأكيد سأساعد أجمل فتاة على كوكب الأرض.

ريشيل: شكراً ماما، وإن كنت جميلة فذلك لأنني أشبهُكِ.

تعود إلى الواقع بهز كتفها من شامخ وقد نادى باسمها عدة مرات.

شامخ: رشاء ماذا بكِ، أين سرحتي؟!

رشاء: لقد تذكرت حياتي السابقة مع والدتي ووالدي، لقد اشتقت لهما كثيراً، أتدري يا شامخ شعور الفقد سيئ جداً واليتم أكثر مرارة، فأنت دون ملجأ أو حضن أمك الدافئ الذي يشعرك بالأمان، تصبح فاقداً لحنانها وعطفها، لصوتها وطبخها، لصراخها عند مشاغبتك أو الجنون، كسيراً ضعيفاً وحيداً، وكبستانٍ من غير زهور، وبلا أب يعني ليس هنالك من يسندك ويقف أمام الصعاب لأجلك، ويصبح درعك الواقي من كل شيء أي ليس هنالك من يشجعك ويبث الأمل في روحك، من يقول لك حتى إن أخطأت سأكون معك، ومهما تعثرت انهض وستصل إلى ما تريد.

تتسابق دموعها في السقوط ويعلوا صوت نحيبها.

شامخ: رشاء ستلتقين بهم في الجنة إن شاء الله، فكفي عن البكاء حتى لا تزعل أمك منكِ، وتشعر السيدة زينب أنها مقصرة في حقكِ.

رشاء: حسناً، إلى اللقاء.

شامخ: سآتي عصراً لنذاكر دروسنا.

رشاء: شكراً لك.

شامخ: العفو.

عِلية المسجد.

بقي القليل لتتعافى من ألم كسورها ولكن ستظل الجبائر حتى الموعد المحدد، تحاول قراءة الكتب التي أمامها بعد أن علمتها وفاء الأبجدية، وساعدتها في القراءة والإملاء، وبسبب كبر سنها عن وقت التعلم وذكائها حفظتها سريعاً، وأصبحت جيدة في القراءة لكثرة قرأتها للكتب وكثرة وقت فراغها، كتب دين، كتب طبية، كتب ثقافة مختلفة، والكثير من كتب سيرة النبي والصحابة والتاريخ الإسلامي.

تسمع الكثير عن الإسلام وترى تطبيقات هذا الدين كم إنها جيدة، وتستنكر عدم تطبيق هذا الدين من غالبية الداخلين فيه والمسلمين، إنهم يأخذون اسم الدين لكن لا يطبقونه أو يتصرفون على وفقه، هل الإنسان العاقل يرى الخير وطريق السعادة ويختار الطريق الآخر؟!

هل هذا شيء منطقي، أن يكون لهم دين جيد وجميل فيتركونه ويتبعون ديانة غيرهم ومعتقداتها وعاداتهم، إنهم غريبون للغاية، بل أصبحوا يستنكرون من يتبع ملته ودينه ويقوم به على أكمل وجه وكأنه عدواً لهم، وكأنه يخرج عن الدين لا يتبعه.

تحضر وفاء الطعام وتجلس معها لتأكل.

رقية: وفاء أريد أن أخبركِ شيء.

وفاء: تفضلي يا صديقتي الصغيرة.

رقية: أريد الدخول في الإسلام.

امتلأت أعين وفاء بالدمع وأقشعر جسدها وتهلل قلبها فرحاً.

وفاء: أجمل ما يمكن للشخص سماعه، جميل جداً يا عزيزتي قراركِ هذا.

رقية: أريد منكِ تلقيني الشهادتين، أريد أن أتشارك معكِ إسلامي، وأن يكن لكِ أجر دخولي فيه.

شعرت وفاء بالامتنان لرقية ولحسن نيتها: شكراً جزيلاً لكِ رقية لإعطائي هذه الفرصة ومشاركتكِ بأجر دخولك للإسلام.

رقية: لا شكر على واجب فأنت وهشام سبب دخولي ولا نكران في ذلك.

وفاء: حسناً وسنخرج اليوم احتفالاً بدخولكِ الإسلام ونذهب للتسوق، وسنطلب من هشام أن يوصلنا إن لم يمانع ونفاجئه بإسلامكِ.

رقية: فكرة جميلة، فأنا أريد شكره كثيراً، فقد قام بالكثير من أجلي.

وفاء: نعم أثابه الله.

تمشي ببطء معها لعدم شفائها الكامل وبين دكاكين البضائع يتسوقن.

رقية: آنسة وفاء ذلك الحجاب أعجبني للغاية، هل يمكنني أخذه.

وفاء: بالطبع يا عزيزتي خذي ما يعجبكِ اليوم متاح لكِ شراء ما تريدين فهذا هدية دخولكِ الإسلام.

رقية: أريد ذلك الثوب أيضاً، وأريد أن أرتديها هنا للخروج بها.

وفاء: حسناً، دعيني أضع الحساب عن تلك الملابس، من ثم خذيها.

ترتديها في غرفة القياس، تنادي وفاء لكي تصلح لها الحجاب فهي لم تستطع إصلاحه؛ لعدم ارتدائها لحجابٍ مسبقاً.

وفاء: بالطبع، وسأعلمك كيفية ارتدائه في المنزل.

رقية: شكراً لكِ يا وفاء.

بعد الانتهاء من التسوق، وبرفقة سارة التي كانت سعيدة بإسلام رقية، وأعطتها ساعة ذهبية ذات عقارب سوداء وإطار دائري مرصع بقطع صغيرة من الكريستال وحزام الساعة من الإستيل الذهبي.

متوجهة إلى السيارة للذهاب إلى المطعم لتناول وجبة الغداء لتبرق عيني هشام بفرحة وسعادة وتتلألأ بالدموع: مبارك إسلامكِ يا رقية.

رقية: الشكر لك لمساعدتي، ولكل ما تقدمه من أجلي إنني ممتنة كثيراً لكل ما تقوم به، وأتمنى أن أرده لك بأي طريقة.

هشام: ليس بيننا شكر، والذي قمت به أجره من الله، ولكن أريد أن أخبرك بشيء.

رقية: تفضل.

هشام: هنالك مركز لتدريس يمكنكِ الالتحاق بهِ بدلاً من المدرسة، ومن ثم ستعودين للمدرسة عندما يكون مستواكِ ملائم مع عمرك.

رقية: جميع كلمات الشكر لا تكفي ولا يمكنها إيصال شعور الامتنان الذي يكنه قلبي لك، لكن تأكد أي وقت تحتاجني ستجدني بجوارك، سأكون معك أينما تريد، سأخوض معك كل المعارك، أردت أيضاً إخبارك بشيء.

هشام: إنني منصت لكِ.

رقية: أريد أن أساعد في حركة حماس التحريرية.

بوجهٍ ضاحك يجيب هشام بماذا ستساعدين؟

رقية: بأي شيء أستطيع فعله.

هشام: ما الذي تستطيعين فعله؟

رقية: أممم، الطبخ.

تتعالى أصوات الجميع بالضحك لتجيب وفاء: لازلتِ صغيرة يا عزيزتي، عندما تكبرين يمكنكِ المساعدة.

رقية: حسناً، لكنني أفضل مساعدتهم وكثيراً.

وفاء: لقد أصبحتِ منَّا حقاً، ويبدو أن الدم الفلسطيني يجري في عروقكِ.

بعد عودتها من سفرتها القصيرة تعود لتأخذ انتقامها من ذلك الفتى الذي لم ينبذ رقية كالجميع، والذي كان بالنسبة لها سبباً في تمردها وتشجيعها على الهرب، ولكن أين ستهرب وهي لا تعرف أهلها أو أحد غيرها، وكم ستظل لابد لها من الرجوع، هذا إن لم تكن تأتي ليلاً لتسرق من طعامي، رغم أنه لم يكن ينقص في وجودها ولكن من أين ستأكل!

تمشي بغضب واستعجال لرؤية والد سيكر الذي كان مجرد رجلاً عاطل عن العمل، سكيراً يتجول في الحانات ليتذوق بعض النبيذ، بذيء اللسان والمنظر، لم يكن يهتم بشكله، يتشاجر هو وزوجته كل يوم، لتقوم هي بدور الوالي للبيت والمسؤول فتعمل في التدريس وتصرف على البيت، فيأخذ زوجها المال منها برضاها أو غصباً عنها بالضرب، والكثير من الشتائم ليصرفها على الويسكي والشامبانيا.

وكحال أي فتى مراهق في عمر سيكر متجول في الشوارع كالمشردين لا أباً يعلمه ويوعيه ويجعل منه صديقاً له، أو أماً قد يجد العطف أو الحنان منها فقط العصبية والشتائم كونه ابناً لذاك الزوج الغير واعٍ أو مسؤول، أسرةٌ مفككة ولكن في منزل واحد،

يهرب من صراخ المنزل إلى الشارع ليضرب هذا ويركل ذاك بشخصيته الجبانة والتي يملؤها الخوف.

تطرق الباب عدة طرقاتٍ متوالية، افتحوا الباب أيها الحمقى، عائلة المشردين الفقراء، افتح الباب أيها السكير متجول الحانات، يفتح الباب ليخرج والد سيكر والنوم يملأ عينيه الخضراوين كلون نباتات الريحان، ماذا هنالك سيدة شيل، ما الذي تريدينه؟!

شيل: ابنك ذاك أين هو؟ أريد أن أخبرك شيئاً في وجوده.

والد سيكر: ابني!! أنا لا أدري من أحضرني إلى البيت وتريدين أن أعرف أين يتجول الأحمق ذاك؟!

شيل: تباً لك من أبٍ، وتباً لكم من عائلة لا تعرف أين ابنها.

والد سيكر: حسناً إلى اللقاء، يقفل الباب دون انتظار ردها.

لتبتعد عن المنزل وهي في أوج غضبها، ولسانها يردد الكثير من الشتائم والسباب متوعدة بعواقب بغير موعد.

قولي بعدي " إذا جاء نصر الله والفتح " هيا رشاء إنها آية واحدة، قوليها بعدي فقط.

رشاء: لكنها طويلة، ولقد حفظت آيات درس اليوم ولم أعد أستطيع الحفظ أكثر.

شامخ: رشاء كفي عن الدلال الزائد، لقد حفظت ثمان آيات فقط، أنتِ تريدين اللعب أليس كذلك؟

رشاء: في الحقيقة نعم، ولكن خالتي لن ترضى بذلك.

شامخ: احفظي هذه السورة وأعدكِ بأني سوف أقنعها.

رشاء: حسناً، أنت لا تخلف الوعد صحيح؟

شامخ: بالتأكيد، والآن رددي بعدي ...

رشاء: لكن شامخ هل تعرف بأنني لم أكن أهتم بمذاكرة دروسي مسبقاً، كنت ألعب في الشارع طول الوقت وليلة الاختبار هي ليلة لقائي بالمنهج.

شامخ: هههههه، اضحكتني يا رشاء وهل هكذا يتم التدريس في مدارسكم؟!

رشاء: كلا، ولكنني لم أكن أحب أن أقابل كتبي كل يوم، فكنت أحصل على العقوبات في المدرسة.

شامخ: هل تشتاقين لبيتكم وللحي، وللأطفال الذي كنتِ تلعبين معهم؟

رشاء تنظر إلى الأسفل بحزن وعينيها توشك على الاغتسال بالدمع مجدداً وكحالتها كل ما تذكرت والديها: أشتاق لكل شيء في حياتي السابقة حتى لمتجر البقالة الذي في طرف الحي، لكن خالتي زينب قالت لي بإن الله سيعوضني، لأني مسلمة وسألتقي بأمي وأبي إن أراد الله في الجنة.

شامخ: هل تريدين أن نذهب غداً إلى حيكِ السابق لترين أصدقائك القدماء؟

رشاء: نعم أتمنى ذلك، لكن هل خالتي زينب ستسمح لي بالذهاب.

شامخ: سنذهب بعد المدرسة، وإن أردتِ لن نخبر أحداً.

رشاء: حسناً موعدنا غداً بعد المدرسة.

شامخ: والآن ذاكري دروسكِ.

ترتب ملابسها الجديدة في خزانة الملابس بعد أن قامت بتجربتها جميعها وحاولت تعلم كيفية ارتداء الحجاب بنفسها يشعر قلبها بالسلام، وكأنها أصبحت طائراً حراً بعد أن كانت حبيسة في سجن التخلف والأحقاد، تذهب إلى وفاء لتخبرها بما قال لها هشام وبقرارها بالذهاب إلى المركز لتدرس ومن ثمة العودة إلى المدرسة بعد أن يكون مستواها جيداً مقارنة بعمرها، والآن يا وفاء لقنيني الشهادتان.

وفاء: حسناً، قولي بعدي "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله".

رقية: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله".

أريد أن أدعوا مثلكم، أن أقول يا رب وهو يسمع دعائي ومُناجاتي، كنت أشعر بالغِبطة منكم عندما تدعون الله في صلاتكم، كنت أشعر وكأنكم في عالم آخر ولا تشعرون بمن حولكم عند الحديث مع الله، وكأنكم متأكدون من الإجابة عند دعائكم، وأكثر ما كان يثيرني أنه مسموح للنساء بقراءة القرآن ولمسه، إما عند اليهود فلا يسمح لهن، ويتم تدريسهن بضع مختارات الأسفار من قبل المدرس.

في الكتب التي قرأتها لسيرة الرسول أشعر بكم هو إنسان رائعاً حقاً، لطيف مع الأيتام والفقراء، وكريم مع ضيفه، حسن السيرة ومحبوب من قبل الجميع، صادق أمين وتحمل الكثير لإيصال هذه الدعوة إلى الناس، لله ما أعظمه وما أعظم سيرته.

من اليوم سأنزل معكِ لأداء الفرائض.

وفاء: ولكنكِ لن تستطيعين الوقوف لذلك ستجلسين على الكرسي وتصلين.

رقية: وهل يستطيع الشخص أن يصلي جالساً؟

وفاء: بالطبع يا عزيزتي، ولكنكِ لا تجلسين إلا عند عدم مقدرة للوقوف.

رقية: أهاا، جميل جداً، حسناً، سأكون معك دائماً.

وفاء: وهذا شيء جميل.

بعد انتهاء الدوام المدرسي وتحت حرارة شمس الظهيرة، تنتظر شامخ بوجه محمر وفماً يطلق تصفيراً، وقدمها تحفر بقعة في الأرض، يديها خلف جسمها تمسك بسور المدرسة لتفجع بصوتٍ جوار أذنها، تصرخ بانزعاج؛ شامخ!!، ما هذه الحركات، لقد أفزعتني.

شامخ: ما بكِ غاضبة هكذا، من المفترض أن تفرحي لذهابكِ ليس أن تغضبي.

رشاء: إنني متوترة كثيراً، أولاً لأني لم أخبر السيدة زينب، ثانياً لأنني أشعر بالقلق من الحي وأخاف من المنزل، لا أريد دخوله.

شامخ: لن ندخل المنزل ولا تقلقين، سنذهب إلى أصدقاء الحي ونعود، وإن لم تريدي الذهاب لن نذهب.

رشاء: بلى، هيا نذهب.

شامخ: أخبريني ما أسماء أصدقائكِ في الحي.

رشاء: روب، رودي، سيليا، وماتشر، لويس، وتلك البغيضة شيري.

شامخ: ولماذا هي بغيضة؟!

رشاء: لقد كانت تقلدني في كل شيء، حتى ملابسنا تتشابه، وتصفيفة شعري كانت تقلدها على الدوام، إنه مزعج للغاية، حتى أنها حقودة للغاية، وتريد جميع الأشياء لها ولا تريد مشاركة الآخرين إلا بأشيائهم لكن أشيائها فهي خاصة بها.

شامخ: إنكِ حقاً لا تحبينها.

رشاء: نعم حتى لا أريد رؤيتها مطلقاً.

شامخ: كم متبقي حتى نصل؟

رشاء: إن مشينا أسرع أو لربما نجري سنصل أسرع، هيا نجري سباق إلى تلك الشجرة العملاقة، والذي سيصل متأخراً سيحمل الآخر إلى حارتي القديمة، هل أنت موافق؟

شامخ: بالطبع هيا، واحد، اثنان، ثلاثة...

تجري بأقصى سرعة وهو يجري فقط ليريها بإنه أسرع منها، فهو لن يدعها تحمله.

المياه لم تجف بعد وامتزجت مع التربة لتصبح وحل، وأمام الشجرة يجريان ليتزحلق شامخ وتتلوه رشاء ليقبلا الطبيعة وهذه التربة المختلطة بالمياه، وجهيهما مغطيان بالكامل لا يتضح منه شيئاً سوى أعينهما، وملابسهما أصبحت متسخة للغاية، كلاً منهما يرى وجه الآخر، فتتعالى قهقهة الضحكات ولم يرى أي منهما وجهُ.

رشاء: لمَّ لا تلعق الشوكولاتة التي على وجهك. وتعود لنوبة ضحكِ مرة أخرى.

شامخ: أنتِ لا ترين كم أن شكلك مضحك، عينان بلون العشب ووجه بلون التربة، سنضعكِ أرضاً وسيظن المارة أنكِ جزءً من الطبيعة. ويرتفع صوت قهقهته.

تنهض رشاء وتنظر إلى ملابسها المطلية بلون الشوكولاتة الداكنة، شامخ أنا لن أستطيع أن أذهب لرؤية أصدقائي القدماء بعد المدة الطويلة بهذا المنظر.

شامخ: ذلك مؤكد، سنعود اليوم وسنأتي إن شاء الله غداً.

رشاء: إن شاء الله، والآن ليعود كلاً منا بقدميه، وتتعالى الضحكات مجدداً.

تسمع أذان العصر، فتتوضأ وتلبس رداء الصلاة وتنزل.

فتأخذ وفاء الكرسي وتضعه لها.

رقية: شكراً لكِ يا وفاء.

وبابتسامة رقيقة ترد وفاء: لا شكر على واجب.

تصطف النسوة للصلاة، وبعدها يجلسن في حلقات للحديث أو لقراءة القرآن أو لقص قصص الأنبياء.

سلمى: الحرب لا تعرف صغيراً أو كبير، واليهود لا يفرقون بين طفلٍ وكهل وامرأة أو رجل، يبيدون الجميع وكأنهم لا يرونهم.

شمس: بل إنهم يعتبرون جميع البشر الآخرين أقل مستوى منهم ويعتبرونهم حيوانات، هم يقولون بأنهم شعب الله المختار.

تقوى: يا جارتي، أنتِ لا تلاحظين بأنهم مقتصرين بديانتهم على أبنائهم فقط، ليسوا كالمسلمين أو النصارى يدعون الناس إلى ديانتهم، يريدون الاحتفاظ بها لنفسهم.

سلمى: يحتفظون بماذا؟، بديانة محرفة مجرد كلام بشر لا يختلفون شيئاً عن البوذيين أو الهندوس، إنهم يقولون بأنهم أبناء الله، وهل يعقل هذا!!

تقوى: أنا أعرف بأنه تحريف، وأن لا دين عند الله إلا الإسلام، وتلك مجرد شرائع سماوية، بعد أن تأتي الأخرى يجب العمل بها وتصديقها، لكنهم تجبروا وامتنعوا عن تصديق النبي صلوات الله عليه وسلم.

شمس: وأكبر مثال ما فعلوه في الفتاة المسكينة، رقية يا ابنتي ألم يكونوا لكِ كالعائلة أم عذبوكِ.

كمن رش الملح على الجرح دون قصد منهن، عادت لها جميع الذكريات وتحولت مشاعرها إلى حزن وكآبة بدل السعادة والراحة التي كانت تشعر بها، لتجيب: نعم لقد كانوا سيئين إلى درجة كبيرة، الظلم والاستبداد والعنصرية والخوف والتجبر كلها فيهم، تشعر بأنهم جماعة متعاونة ولكنهم متفرقين والحقد يملأ قلوبهم كلاً منهم يحسد الآخر.

تقوى: المعذرة منكِ يا ابنتي لم نقصد أن نحزنكِ.

شمس: المعذرة يا طفلتي أننا انغمسنا فقط مع الحديث، وإلا لم نكن لنذكركِ بماضيك.

سلمى: ليشهد الله أنني أعتبركِ كابنة لي وأتمنى أن أراكِ سعيدة دائماً.

رقية: أعرف أنه ليس منكن بقصد، ولكن المعذرة سأصعد إلى غرفتي.

حزينة والبؤس يضع له عشاً في قلبها، تستلقي على السرير لتدخل في الموتة الصغرى.

تدور حول نفسها وكأنها زهرة دوار الشمس بشعرها الأشقر ودبوس الشعر الأسود في منتصف رأسها، ودون سابق إنذار تُرمى بالحصى والتراب، تستدير لجهة اليمين لترى أفنان تنظر إليها بنظرات تملؤها الغيرة.

رشاء: أيتها الفتاة الغيور، لماذا ترمينني بالحصى والتراب؟!

أفنان: فلتعودي إلى حيكِ وأهلك، لماذا أنتِ هنا لستِ واحدة منا ولا تنتمين لنا؟، أنتِ يهودية، عبرية، استعمار ومحتل لأرض الغير، ليس لكم حضارة أو تاريخ يذكر أيها الإسرائيليون.

تتلألأ الدموع في عينيها ولكن ليست هي من ستري الآخرين دموعها، ستخبئها حتى تكون بمفردها.

أنا شمساً قوية

وجودها يعني الضوء

وغيابها يعني الظلمة

أنا زهرة

تعني العطر

وتعني الرقة

أنا فراشة ووردة

لست بعود ينكسر أو ينحني

لغير رب العزة

أنا مسلمة عبرية حرة.

رشاء: أنا بين إخواني المسلمين ولا يشترط وجود الدم في كل العلاقات فخالتي زينب كأمٌ لي والسيد زكريا كأبي الراحل، لست غريبة، أنا عبرية لكن حرة، مسلمة وأبية جاء بي استعمار ... نعم، لكن لست هنا لأقاتل أنا هنا لأني مسلمة وكباقي المسلمين هنا ندعو وندخل للأقصى، فليس لكِ الحق حتى تعايريني بشيءٍ ليس فيني.

لم تستطع أفنان أن ترد عليها بنفس الفصاحة وكعادة الأطفال تحرك عينيها بغيظ وتمشي.

أما رشاء فلم تستطع كبح دموعها أكثر، فتساقط دمعها بسبب كلمات أفنان الجارحة والتي عبثت بقلبها المسكين، وأشعرتها بأنها وحيدة وأنها غريبة بحق، وجعلتها اليوم تشعر بأنها يتيمة حقاً رغم حسن معاملة السيدة زينب لها، ولكن الكلمات كسوط حارق لطفلة التسعة أعوام، يد تمسح خدها برفق.

شامخ: ما بك يا زهرة دوار الشمس من أنزل دمعاتكِ الغالية من مقلتيكِ.

رشاء: لا شيء، هيا بنا قبل أن نتأخر.

شامخ: حسناً، ولكن ليس هنالك سباق.

رشاء: هههه، حسناً لا مزيد من الشوكولاتة.

شامخ: هل تعرفين يا رشاء بإن في فلسطين قبر الرسول إبراهيم عليه السلام، والكنائس التي يعود تاريخها إلى قبل ألف عام، ويقال إن أريحا أقدم مدينة في العالم، سأسألكِ سؤال، هل تعرفين ماهي الدول التي تحد فلسطين؟

رشاء: أعرف أن مصر تحدها من الجنوب، وأن سوريا من الشمال الشرقي.

شامخ: أيضاً من الشمال الأردن، ومن الشرق لبنان، وغرباً البحر الأبيض المتوسط، وهل تعرفين كم تبلغ مساحتها؟

رشاء: كلا، لا أعرف، كم تبلغ؟

شامخ: تبلغ ٢٧,٠٢٧ كيلو متر مربع بما في ذلك بحيرتا طبريا والحولة، ونصف مساحة البحر الميت وهي كحلقة وصل برية بين قارة آسيا وقارة أفريقيا، وأكد الباحثون في التاريخ والمؤرخين بإنها عربية منذ القدم، عندما هاجر إليها الكنعانيون الذين جاؤوا من جزيرة العرب من أرض سبأ بالتحديد من جنوب جزيرة العرب أي من دولة اليمن حالياً.

رشاء: انظر تلك هي رودي. رودي،... يا رودي!

لتستدير فتاة أصغر من رشاء بسنة، ذات شعر بني فاتح كلون الكاكاو وعينين صغيرتين بعدسة سوداء اللون، تجري وهي تصرخ بفرحة الأطفال: ريشيل صديقتي العزيزة تحتضنها بقوة، وتقول لقد اشتقت لكِ كثيراً.

رشاء: أنا أيضاً لقد اشتقت لكِ ولجميع أصدقائي في الحي.

رودي: ولكن أين اختفيتِ وأين أمكِ ولماذا لم تودع أمي، لقد زعلت أمي من تصرفكم هذا، ألسنا جيراناً؟!

رشاء: إنها قصة طويلة يا رودي، ولكن أين بقية الأصدقاء؟

رودي: الدوام المدرسي ازدادت عدد ساعاته ولذلك هم في المدرسة، وأنا عدت اليوم من السفر لذلك لم أذهب للمدرسة، اعذريني سأوصل لأمي البطاطا وأعود.

رشاء: حسناً وأنا سأتجول مع صديقي ريثما تعودين.

هل ترى يا شامخ ذلك المنزل، إنه منزل رودي، والمنزل في الجهة المقابلة منزل لويس وبجانبه منزل روب، وسيليا تقطن في الشقة التي فوق شقة روب، وماتشر ابن العمدة.

شامخ وعينيه تنظر لها وتظهر على ملامحه الضحك: ومنزل شيري أين هو.

تظهر على ملامحها علامات البغض والضجر لتجيب: لماذا؟ هل ترد أن تتعرف عليها؟!

يضحك حتى دمعت عيناه، وإذا قلت نعم، هل ستعرفينني على صديقتكِ لأدعوها للعب معنا في حارتنا.

رشاء: وهل أنا حمقاء حتى أشاركك حماقتك!

يضحك مرة أخرى وبصوتٍ أعلى: إنني أمزح معك، فما يغيظك يغيظني أيضاً أياً كان.

تعود ملامحها للابتسامة مرة أخرى وتجيب: نعم أنا أعرف من أكون بالنسبة لك.

شامخ: نعم نعم، أعز الأصدقاء أنتِ أفضل عضو في الفريق.

وعند اقترابها من منزل والديها ترى أثنين من العساكر بجانب باب المنزل، فتسحب شامخ للجدار الفاصل وتنصت لحديثهما.

الأول: يبدو بأنها لن تعود مجدداً، لربما عرف والديها بمجيئنا وتركوها تهرب أو خبأها في بيت أحدهم.

الثاني: لا أظن بأنهم عرفوا بقدومنا فقد كان الأمر في غاية السرية، ولكن. هنالك حل.

الأول: أخبرني بحلولك.

الثاني: أن نحدد قيمة مالية لمن يجدها، أو نضع إعلان عنها.

الأول إنها فكرة ولكنها ابنة عائلة يهودية لن يتعاون معنا الناس.

الثاني: سنقول بإن أهلها ماتوا وهي ضائعة، لن نخبر الناس الحقيقة أيها الأحمق.

الأول: حسناً لنبدأ بأهل الحي، سيكونون أكثر الناس تعاطفاً معنا وقرباً منها.

يتحركون باتجاه الجدار الفاصل، فتخرج رودي تريد أن تصرخ باسم ريشيل، لكن شامخ يشير لها بأن تصمت واضع سبابته عند فمه بشكل عمودي، وهي لم تفهم لتصرخ: ماذا تقول أنا لم أفهم إشارتك.

ليسحب يد ريشيل ويذهب بها باتجاه منزل رودي ليسمعا صوت أحد الجنود يقول: أيها الصبيين قفا واستديرا نحوي.

شامخ: رشاء انا سأستدير باتجاههم وأنتِ أخبريني كيف أقولها بالعبرية، سأقول مرحبا سيدي ماذا تريد من ثمة أنتِ ستصرخين بالعبرية، وتقولين أفلتني سأذهب وأقول لماما، بِأنك أكلت سكرياتي وسنخوض شجار بسيط وتركضين لمنزل رودي وأنا سأتبعكِ.

رشاء: حسناً.

يمسك يدها ويستدير

بعد الترجمة:

شامخ: مرحباً سيدي، ماذا تريد؟

الجندي الأول: هل أنت من سكان هذا الحي؟

رشاء ودون ان تستدير ناحيتهم: أفلت يدي، تحاول سحب يدها منه وتصرخ، سأخبر ماما بإنك أكلت سكاكري.

شامخ يسحب يدها وهي تضربه على رأسه، ليقوم الآخر بإمساك شعرها من الجهة المقابلة للبيت ويهمس لها افلتيني واهربي الآن للبيت.

تفلت يدها منه وتجري ناحية البيت، ويقوم هو بالتمثيل بالنظر إلى الجنديين بنظرة الإحباط والحيرة ومن ثمة اللحاق بها إلى منزل رودي.

ليضحك الجنديين عليهما ويقول أحدهم، إنها الطفولة وسذاجتها ويواصلان مسيرهما إلى مركز التجنيد لطرح الفكرة على القائد.

بينما تستقبل أم رودي رشاء بالأحضان والقبل، فقد كانت جارتهما وصديقة أم رشاء من الجامعة لتقول: لماذا ذهبتم يا ابنتي دون وداع، أو حتى رسالة تخبروننا فيها برحيلكم، لم نعرف إلا عندما أخبرنا الجنود برحيلكم وأن منزلكم أصبح مقر للقيادة العسكرية.

ألست أنا جارتكم وصديقتكم ورودي صديقتكِ، أم أننا لا نعني لكم شيئاً؟.

كلماتها كمن رش الزيت على النار في قلب رشاء وأصابتها بالكثير من الأحزان في قلبها، بعد أن سمعت كلام أفنان الجارح لتجيب: إنك كخالةٍ لي ولكنكِ لم تعرفين حقيقة ما حصل، تتساقط دموعها بسرعة الواحدة تلو الأخرى، والديَّ ماتا يا خالة، والجنود كانوا يريدون أخذي ولكنني هربت، فمن يذهب مع قتلة والديه؟!!

عدت يا خالة إلى البيت والدم يملأ الغرفة وملابسهما قد تغير لونها الى اللون الأحمر القاني، أمي وأبي جثتين هامدتين جسد بلا الروح، والجنود في الأعلى يبحثون عني وبالكاد تملصت منهم بعد أن سمعت ما يريدون فعله بي، كانوا يريدون تجنيدي يا خالة لم تستطع إكمال كلامها، وانقطع نفسها من كثر البكاء، فتمسح أم رودي على ظهرها وتأخذها لحضنها، فيزداد نحيبها لفقدان حضن والدتها الدافئ.

شامخ: هيا بنا سنتأخر عن المنزل.

رشاء: حسناً، إلى اللقاء يا خالتي، إلى اللقاء يا رودي.

أم رودي: ريشيل، سأكون معك، وأساعدك مهما كان ما تريدينه كرماً لوالدتكِ الراحلة، ومتى أردت يمكنكِ القدوم فهذا المنزل منزلكِ أيضاً.

رشاء: شكراً لكِ يا خالة، دائماً طيبة كما كانت تخبرني أمي عنكِ.

أم رودي: انتبهي لنفسكِ جيداً، ولا تنسي أنني بجانبكِ.

رشاء تحتضن رودي وأمها وتودعهما ببعض الدموع، ثم تمسحها وترحل برفقة شامخ صديقها الوفي.

يجريان في الشارع فقد تأخرا كثيراً والسيدة زينب ستقلق، فتهب رياح باردة ويليها قطرات ماء وتزداد القطرات شيئاً فشيئا، فينهمر المطر بغزارة والصغيران يجريان، بعض الشيكل في جيب شامخ ينادي رشاء الى تحت ظل لتخرج ما معها من نقود ويأخذ نقودهما معاً ويشتري مظلة ويظللان حقيبتهما المدرسية، ليلعبا تحت المطر ويدورون حول نفسيهما ويمسك أحدهما يد الآخر ويدوران معاً ويقفزا كي تتطاير قطرات المطر المجتمعة في أرضية الشارع، الحي ممتلئ بضحكتيهما والبهجة تملأ قلبيهما.

هكذا الأطفال البراءة والبساطة شعارهم، لا يسأمون من اللعب أو يتعبوا، عيونهم يملأُها الشغف والحماس، وكأنهم عبارة عن طاقة متجددة شعلة من وهج، بريق لا يطفأ أحباب الرحمن.

وبعد اللعب يتظللان الاثنان تحت المظلة ويلبسان حقيبتهما ليسأل شامخ رشاء

شامخ: لماذا كانوا ينادونكِ ريشيل؟

رشاء: إنه اسمي القديم.

شامخ: لقد تذكرت عندما التقيتكِ أول مرة وسألتكِ ما اسمك كنتي تريدين قول ريشيل أليس كذلك؟

رشاء: نعم فقد كان الاسم حديثاً ولم أكن قد اعتدت عليه.

شامخ: هل اسمتكِ السيدة زينب

رشاء: نعم، ولقد أحببته كثيراً.

شامخ: نعم إنه اسم جميل، خذي المظلة وأدخلي وأنا سوف أواصل الجري إلى البيت.

رشاء: شكراً لك، إلى اللقاء.

فتاة صغيرة ذات عشرة أعوام، ورجل في العشرينات من عمره، يقترب منها وعلى عينيه نظرات الخبث والمكر، نظرات تبث الرعب في قلب الطفلة، نظرات تثير الاشمئزاز والريبة في نفس ناظرها، تحاول الهرب يسحبها إليه ليعتدي عليها وهي طفلة لا تعرف شيء لا تدري ما تفعل تسحب بيدها الأبجورة وتضرب بها رأسه ليترنح مبتعداً عنها فتجري سريعاً إلى غرفتها، مكانها الدائم (المطبخ)، وداخل إحدى الخزانات تختبئ، تصمت وتغلق فمها بيدها وفرائصها ترتعد رعباً وقلبها يكاد يقف، تسمع صوت ربة المنزل فتشعر بالراحة قليلاً، هي لن تقف في صفها ولن تصدقها أو تسمع لها والفتاة لن تخبرها، ولكنه لن يجرؤ على الاعتداء عليها في وجود ربة المنزل.

يوماً يمضي ويوماً يأتي وهي تحاول الابتعاد عن محيطه وتهرب كل ما سمعت صوته، أو عرفت بمجيئه تخاف، تتوقع بأنه يريد قتلها، ليست تدرك أن ذلك أسوأ، وكأنه كابوس مريع، تذهب إلى الحمام وتعود وشعرها مبلل وهو في المطبخ يسكب له بعض النبيذ ليستدير بكامل جسده عند رؤيتها، ويقول: لقد اشتقت إليك، هل كنتِ تختبئين مني؟!

لا تخافي إن أتيتِ إليّ الآن، وحتماً سأمسك بكِ اليوم مهما حاولتِ الهرب، ولكن إن كان من نفسكِ ودون إصدار ضجة فسأسامحكِ على تصرفكِ الأحمق ذاك اليوم.

تبكي ولكن دون صوت، يقول لها أوش، ستصدرين صوتاً وسأعاقبكِ على تصرفاتكِ كلها، فأصمتِ أفضل لك.

لم تدري كيف تتصرف أو ماذا تقول، تستدير نحو الخلف وتصعد الدرج بأسرع ما يمكنها وتجري لغرفة شيل، تفتح الباب دون أن تطرقه بينما تلك تشعل إحدى السجائر في المنضدة، تدخل بانفعال لتصرخ سيدة شيل هنالك فأراً في المطبخ تنظر إليها بنظرات قاسية تخلو منها الإنسانية، فتقول لها: فأراً!

رقية: نعم.

شيل: تعالي بعدي.

تنزل من الدرج برفقة شيل لتقول لها: الآن تبحثين عنه أمامي ولن تنامي اليوم إلا وقد أخرجته ورأيتني.

لا يوجد أحداً في المطبخ، فبعد تصرفها ذلك وسماعه لكلامها قرر ترك المطبخ وتركها لعودته من السفر، حينئذ سيكون متفرغاً للعبث معها.

هي ليست نادمة على كذبتها وستبحث حتى إن اقتلعت جدار المطبخ لتجد فأراً، لكنها فخورة بتصرفها هذا وعلى تخلصها من ذاك الوحش المخيف.

توقظها بعد أن سمعت صراخها وحرارتها مرتفعة للغاية، رقية... رقية انهضي يا عزيزتي!

تنهض وتشعر بالارتياح لوجودها هنا، وإنها مجرد تداخلات لذكرى سابقة، تشعر بالكثير من الامتنان تزفر براحة كبيرة وتعاود النوم مرة أخرى، بينما تضع وفاء الكمادات الباردة على وجه رقية.

تنتظرها السيدة زينب عند الباب في قلق وخوف، محضرة للحليب يدفأ على النار، واللحاف على الأريكة مجهز لدخول رشاء.

تفتح الباب وملابسها شبه مبللة والمظلة بيدها، لتحتضنها السيدة زينب بحنيتها المعتادة، وتقول: أين أنتِ كل هذا الوقت لقد خفت عليكِ.

تدخلها الغرفة لتغيير ملابسها وتذهب للمطبخ لتخرج الفطائر من الفرن، وتناديها: رشاء تعالي لتأكلي يا صغيرتي العزيزة.

تخرج من الغرفة بملابس قطنية ناعمة، وتجري إلى المطبخ وهي تجفف شعرها بمنشفة بلون زهور النرجس.

زينب: تعالي عزيزتي تناولي الفطائر وكوب حليب ساخن.

رشاء: شكراً لكِ ماما زينب.

لمست كلماتها قلب زينب الرهيف وأثرت على مشاعرها لتبتسم ودمعاتها تريد السقوط لتحتضنها وتقبلها بتأثرٍ كبير، وتقول لها: أنتِ ابنتي التي وهبني الله إياها في هذا العمر ابنتي التي لم تنجبها بطني، حفظكِ الله ورعاكِ يا جميلتي رشاء.

تنهض من النوم بعد ذكرياتٍ مريعة تداخلت في أحلامها ككابوسٍ مخيف، وأيامٍ تريد نسيانها وعدم تذكرها مطلقاً، تذهب لتساعد وفاء في تقديم وجبة الغداء.

وفاء: كيف صحتكِ الآن؟

رقية: الحمدلله بخير، كان مجرد كابوسٍ لذكرياتٍ سيئة.

وفاء: لقد ارتفعت درجة حرارتكِ وكنتِ تهلوسين.

رقية: لقد عادت لي الذكريات في الكابوس لذلك شعرت وكأنها حقيقة.

وفاء: أتمنى أن تعتبريني كأخت لك، وأن تشاركينني كل ما يشغل تفكيركِ، وأكون لكِ سنداً في الفرح والحزن.

رقية: أنت كجميع أهلي يا وفاء، لستِ كأختٍ فقط، كحنية الأمهات وتوجيه الأخوة وسنداً كالأب أنا لم أشعر بكل هؤلاء من قبل أو بشعور العائلة ولكنك حضنٌ دافئ أشعر معك بالانتماء.

تحتضنها وفاء وتقبلها على رأسها وتقول لها أنتِ كأبنتي الراحلة.

رقية: لا تنسي الطعام، فعصافير بطني تزقزق.

وفاء: هههه، لا تنسى هذه الفتاة بطنها مهما كان شعورها.

"رشاء استعدي وارتدي ملابسك الصوفية سنخرج" قالت زينب.

رشاء: حسناً، ماما زينب.

ترتدي ملابسها وتخرج إلى الشارع تنتظر، ترى شامخ تجري إليه، تطبع قبلة في خده، وتقول: له إنها قبلة امتنان.

وجهه أصبح أحمر كالفراولة، محرج للغاية ولم يستطع أن يقول شيئاً.

رشاء: شكراً كثيراً لك، لقد سعدت بمشوار اليوم بعد المدرسة فقد كنت مشتاقة لرودي، وشعرت بالمتعة باللعب تحت المطر، لقد كان يوماً استثنائياً بل الأروع منذ قدومي لهذا الحي.

شامخ: لا شكر على واجب، فلقد استمتعت أنا أيضاً برفقتكِ.

رشاء: إنك شجاع للغاية، وشكراً لك مرة أخرى لمساعدتي للهرب من الجنود، إنك أفضل الأصدقاء وأجمل من عرفت.

تبخرت جميع الكلمات من فمه، وأصبح كالأبله، ينظر لها في دهشة وتبلد لم يستطع الرد عليها، إلا بابتسامة متأخرة.

شامخ: أنتِ كذلك أجمل فتاة تعرفت عليها وأكثرهن روعة.

تخرج السيدة زينب من البيت وتغلق الباب تنادي رشاء، لتأتي وتمسك بيد السيدة زينب وتذهب معها، ملوحة لشامخ بيدها بمعنى الوداع.

تحدث السيدة زينب في الطريق عن أمر ذهابها إلى حيها القديم برفقة شامخ وعما حصل.

زينب: ولمَّ لم تخبريني قبل ذهابك.

رشاء: خفت أن تزعلي، وتقلقي عليّ، لذلك لم أخبركِ.

زينب: مرة ثانية تخبريني قبل الذهاب حسناً!

رشاء: حاضر ماما.

تهدأ العصافير والطيور وتسكن حركة الشجر ليعم السلام والسكون إنه الأذان قد تردد صداه وتبعته الأفواه بالترديد، نداء إلى البشرية للصلاة إلى الخلوة والحديث مع الله.

تردد زينب الأذان وتدخل إلى المسجد لتصلي.

تستعد للنزول لأداء صلاة العصر بعد يوم مليء بالذكريات، بعد الصلاة تقعد للذكر، ترى فتاة وجهها مألوف فتعيدها ذاكرتها إلى الخلف.

(٢٥ / ٩ / ٢٠١٥)

تشتري أغراضاً للمنزل وتمشي في ممرات متجر الأغذية، الأطفال يلعبون بجانبها، يكسرون الأكواب المعروضة ويهربون!

صاحب المتجر: أيتها الآنسة خذي الأكواب المكسورة مع حاجياتكِ وأدفع ثمنها.

رقية: أدفع ثمنها!! .... لماذا؟!

صاحب المتجر: لأنك كسرتها أيتها الآنسة فيجب عليكِ دفع ثمنها.

رقية: من كسر ماذا؟! ... لم أكسر شيئاً، بعض الأطفال الصغار كانوا يلعبون فكسروها، أم لأني بجانبهم يجب أن أدفع ثمنها!

صاحب المتجر: أيتها الآنسة ليس هنالك داعٍ للمشاكل، أدفعِ ثمنها وإلا لن يسمح لكِ بالخروج، وقد نضطر إلى إبلاغ الشرطة واستدعاء أهل منزلك.

رقية: ما هذا الافتراء دون منطق!

تتدخل فتاة صغيرة لم تبلغ من العمر سوى تسعة أعوام.

ريشيل: لا داعي لإثارة الفوضى يا عم، فلم توضع الكاميرات عبثاً، دعنا نراها إن كانت هي المتسببة ستعتذر منك وتدفع ثمنها، وإن لم تكن هي ستعتذر أنت وتعطيها تعويضاً لتسببك بإحراجها أمام الجميع.

رقية: نعم، إنه حكم عادل.

صاحب المتجر: حسناً، لكني لن أدفع تعويضاً.

رقية: رجلٌ بغيض، لكن لا بأس.

تفتح تسجيلات الكاميرا لينظرا للشاشة فيجد صاحب المتجر بأن كلام الفتاة صحيح، وأن الأطفال هم من تسببوا في كسر الأكواب، ليعتذر لها بعد ذلك بوجه ممتعض.

تغادر المتجر وهي تشتم ذلك الرجل السيئ، وتجري بعد الفتاة.

رقية: مرحباً.

ريشيل: أهلاً.

رقية: شكراً لتدخلك مسبقاً مع صاحب المتجر، لقد أنقذتني من ورطة كبيرة كانت ستحدث لولا تدخلك.

ريشيل: على الرحب، هو يريد إخراج قيمة الأكواب من أي شخص حتى إن لم يكن المتسبب.

رقية: نعم، بغيض بالمناسبة هل يمكنني معرفة اسمك؟

ريشيل: بالطبع، اسمي ريشيل، وأنتِ ما اسمك؟

رقية: رقية، انتظري هنا سأعود حالاً.

....

رقية: مرحباً، هل يمكنك أن تعطيني من تلك السكاكر سيدي؟

بائع السكاكر: بالطبع، سعر القطعة شيكل.

رقية: لا بأس، تفضل.

بائع السكاكر: هاك واحدة.

....

رقية: ريشيل تفضلي يا عزيزتي.

ريشيل: أوه شكراً لكِ، لم يكن هنالك داعٍ

رقية: اعتبريها هدية شكر صغيرة، أو لنقول عربون صداقة.

ريشيل: حسناً من اليوم أنتِ صديقتي رقية.

رقية بابتسامة تملأ وجهها: بالطبع صديقتي الصغيرة.

تعود من ذكرياتها إلى الواقع... ٢٠١٦/٥/٥

رقية: لقد تذكرت إنها صديقتي من ذلك المتجر.

تصلي مع السيدة زينب وتجلس بجانبها بعد الانتهاء من الصلاة بينما تتحدث تلك مع النسوة، فجأة تسمع اسمها القديم ينادى، تخبر نفسها إنها مجرد تهيؤات لكنها تسمعه مجدداً، تدير رأسها يمنة ويسرة، ترى وجهاً تعرفه منذ مدة فتاة السكاكر صديقتها رقية، في آخر مكانٍ توقعت أن تقابلها فيه، لكن كيف وهي يهودية!

رشاء: رقية!... أهلاً.

رقية: كيف حالك ريشيل، وما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

رشاء: الحمدلله، أولاً لم يعد اسمي ريشيل بل رشاء، ثانياً لقد أتيت مع ماما زينب نصلي.

رقية: أول يوم أراكِ هنا.

رشاء: نعم، لم آتي إلى هنا مسبقاً.

رقية: قدر خير، وجمعنا الله.

رشاء: حقاً، أخبريني أنتِ كيف حالك، وماذا أصاب قدمك؟

رقية: لقد أصابني الكثير وهذا أيسرها.

رشاء: الحمدلله على سلامتكِ وأتمنى لكِ الشفاء العاجل، آخر المصائب والأوجاع.

رقية: إن شاء الله.

تنهض السيدة زينب لتنادي رشاء .... يا رشاء. هيا صغيرتي سنذهب.

رشاء: حسناً ماما، إلى اللقاء صديقتي رقية.

رقية: إلى اللقاء يا جميلتي، هل يمكنني معرفة عنوانكِ؟

رشاء: بالطبع، بالقرب من متجر القبعات الرئيسي.

رقية: جميل، أنا هنا على الدوام.

رشاء تلوح بيدها مودعة رقية وتجري بعد السيدة زينب.

تمشيان في الشارع، تقف السيدة زينب لشراء بعض الحاجيات بينما رشاء تتأمل المارة، ترى امرأة تشبهها بأمها تفتح عينيها على وسعها وتمشي بعدها في المنعطفات والحارات، مغيبة عن الواقع تفكيرها شبه متوقف، عينيها وقدميها يتبعان تلك المرأة، منعطفاً آخر مبتعدة عن السيدة زينب، تختفي المرأة، غارة إسرائيلية وكارثة جديدة.

قنوات الأخبار تتحدث عن غارات إسرائيلية في غزة تستهدف مواقع للمقاومة، بينما هناك الكثير بين قتيل وجريح جراء انهيار أحد المباني، الأعين من خلف الشاشات تشاهد، بين متألم ومؤيد لحركات الصهيون، وكأن من في غزة ليسوا بشراً!

زينب تستدير لا ترى رشاء تصرخ وتنادي باسمها تكرر النداء، تسأل المارة.. فتاة بشعر ذهبي وعينين خضراء اللون، تمشي في الحارات تجول الشوارع، يصيب صوتها البحة من كثر الصراخ، لكن لا مجيب تتساقط دمعاتها والخوف يتملك قلبها بعد سماع الغارات، تسأل عن موقعها وتجري عكس التيار البشري الناس تهرب من مكان الغارة وهي تجري نحوها.

قدميها لم تعد تقوى على الحراك لكنها تقاوم ضعفها وتمشي، تشاهد المبنى المُنهَد والتراب الذي يحيطه وكومة الصخور التي تجمعت وكأنها جبل، الأشلاء البشرية كأنها أثاث متناثر لكثرتها، صافرات الإسعاف من حولها ورشاشات الغازات السامة تمطرها إسرائيل بطائراتها.

معطف وردي... حذاء باللون البيج، جميعها ملقاة على الأرض... شعر بلون أشعة الشمس وكزهرة دوار الشمس الذابلة وتحت أنقاض المنزل تخرج جثة رشاء بين أحضان المسعف، ليضعها على النقالة ويقول إلى سيارة الموتى.

تصرخ فزعاً وجزعاً تنهار جالسة على الأرض قدميها لم تعد قادرة على حملها، وصوتها يجلجل ودموعها لم تقف ذهبت رشاء... لحقت والديها، انتقلت لتكون من طيور الجنة.

تتذكرها عندما نادتها ماما زينب هذا اليوم وكيف شعرت بالسعادة من كلامها، أعينها تمطر حزناً، وقلبها يعتصر ألماً، تصرخ وتولول رشاء!... رشاء!... رشاء!، تهز كتفها في رجاء لعلها تستيقظ، آثار انهيار المنزل في ملابسها وشعرها وكامل جسدها لونها أصبح رمادياً بفعل التراب الناتج من تحطم جدار المنزل، الجروح تملأ جسدها والدم مخثر ومتجمد أماكن جراحها، شعرها بعد أن كان انسيابياً كالحرير أصبح منكوشاً كمكنسة مر عليها زمن طويل، حتى تداخل التراب بين شعراتها وتكسرت خصلاتها. تقبلها في يأس وتخبرها بأنها تحبها كثيراً تترجاها بأن تنهض حتى أغمي عليها.

من ذاق الألم مرة يتجدد ألمه عند كل ذكرى فما بالك بمن يفقد مرة أخرى يعيش ألماً جديداً، وكأنه لم يفقد الأول منذ زمن قديم، بل كأنه فقد كليهما الوقت ذاته.

يصل السيد زكريا إلى المشفى وملامح الحزن تظهر في وجهه، حتى إنه لم يعرف بعد موت رشاء، يذهب إلى زوجته، نائمة بعد أن أعطوها المهدئ وملامحها يطغوها السكون، يجلس بجوارها حتى يسمعها تتمتم باسم رشاء، لينهض سريعاً ويسأل عنها يخبروه بأنها كانت تبكي أمام جثة طفلة، يتهاوى جسده للأرض وتنزل دمعاته لفتاة اعتبرها ابنته يسأل عن مكانها ويذهب إليها ليراها، طفلة تشع البراءة من ملامحها لم تكن مزعجة بل على العكس ذكية ومطيعة، تحزم السيد زكريا بالصبر والثبات والرضى

بقضاء الله وقدره، وبأن جميع البشر فانين وهذه ليست إلا دار اختبار وابتلاء، يطلب منهم تغسيلها ولكنه يتذكر بأن الشهيد لا يغسل فيذهب لشراء الكفن، تنهض زينب وتتذكر ما أصابها من كدر وتعاود البكاء فيأتي السيد زكريا بعد أن سلم كفن رشاء للمشفى لتكفينها.

يمسك بيدي زوجته ويقول لها لله ما أخذ ولله ما أعطى، هذا أجلها وكلنا ماشون على هذا الدرب كلنا منتهون ليس منا خالداً عليها، والدار دار فناء وابتلاء، لا اعتراض على قضاء وقدر الله ولكنني أسأل المولى العصمة لقلبينا، وتعظيم الأجر لنا ودار ربك خيراً من دارنا، ورحمته وسعت كل شيء فعسى ربك يقبلها شهيدة وطيراً من طيور الجنة، أو أن تشفع لنا في الآخرة.

تمسح دموعها، وتقول: أريد أن أراها قبل تكفينها.

السيد زكريا: بالطبع تعالِ معي، سنشيع جثتها غداً التاسعة صباحاً.

السيدة زينب: حسناً.

انتشر خبر وفاتها في الحي وعند جميع من يعرفها متألمين لموتها وحزينين على حالة السيدة زينب، القرآن يُتلى بصوتٍ عالٍ، والنسوة متجمعات في بيت السيدة زينب يصبرنها على مصيبتها وهي تارة تبكي بصمت وتارة تتحمد الله على قضائه.

شامخ في إحدى غرف بيته يبكي على صديقته اللطيفة التي تعرف عليها مذ مدة قصيرة، ويتذكر لعبها معه تحت المطر وهروبهم من الجنود وأول لقاء بينهم بعد لعبها لعبة الخريطة، ويزداد حزنه عليها.

رقية بعد أن عرفت بموتها بدلت ثيابها وذهبت هي ووفاء إلى منزل السيدة زينب بعد مرورهن على المشفى وإزالة الجبيرة من قدمها.

أفنان الفتاة الغيورة منها ندمت على فعلتها، وشعرت بالحزن على وفاة رشاء وعلى ما قالت لها ذلك اليوم.

صبيحة اليوم التالي الساعة التاسعة.

موكب جنازة رشاء، يحملها السيد زكريا من أحد الأطراف وهشام من الطرف الآخر ورجال الحي في الطرفين الآخرين والبقية من خلفهم يرددون "لا إله إلا الله حي قيوم.... لا إله إلا الله حي لا يموت".

أنزلها لقبرها السيد زكريا ووضع قبلة على جبينها وأدخلها لحدها، ودعوا لها بالمغفرة والرحمة وقرئت سورتا الفاتحة ويس، وذهب الجميع إلى منا تاركينها تسكن جوف الأرض، وتعيش في ظلمة وتفترش التراب، لا أنيس لها في قبرها غير حسناتها وقراءة القرآن اللذان يشفعا لها.

نساء بثياب سوداء يملأن غرف المنزل والرجال في المنزل المجاور لتعزية السيد زكريا وزوجته السيدة زينب.

أم هشام: الأرواح بيد الله فيأخذ الله من يشاء ويبقي من يشاء إلى أجل مسمى.

وفاء: صحيح يا خالة فقد مات أطفالي وزوجي بغارة وبقيت أنا بمفردي.

سلمى: الصهاينة لم يبقوا أحداً إما قتلاً أو خطفاً، لم أنسى ذلك اليوم الذي أخذت ابنتي فيه وهي طفلة في الرابعة من العمر صغيرة لا تدرك شيئاً فبأي ذنب تؤخذ، كم أتمنى أن أعرف هل هي على قيد الحياة وكيف حالها، هل تدرس أم أنهم جعلوا منها سبية لديهم، ماذا أصبح اسمها وهل مازالت على دين محمد أم لا، لقد بحثنا عنها وحاولنا الوصول لأي خبر أو مصدر يوصلنا لها لكن دون جدوى، وكأنها قطرة مطر سقطت في البحر.

الجميع متأثراً بكلامها والدمعات كادت تسقط من أعين السامعات بسبب غزارة دموع سلمى.

شارفت الشمس على الغروب وخف تواجد النسوة في المنزل لم يبق إلى المقربون.

رقية تجهز ملابسها لبداية الدوام في المركز الذي أخبرها هشام، وكلام السيدة سلمى يدور في مخيلتها هي تعرف بأنها أُخذت من ديار المسلمين عندما...

تعود بذاكرتها للخلف.

شيل: مرحباً بكِ سونيا.

سونيا: وبكِ عزيزتي، شيل لم تخبريني أنكِ أنجبتِ طفلة بملامح شرقية!

شيل: تلك التي فتحت لكِ الباب؟

سونيا: نعم.

شيل: ليست ابنتي، إنها من مختطفي الهجوم على قطاع غزة ومسلميها.

سونيا: هكذا الأمر اذاً، وهل تقوم بالأعمال المنزلية لكِ؟

شيل: فلماذا أحضرتها برأيكِ!

سونيا: أرجوك شيل إن تاحت لكِ الفرصة واختطفت فتاة أخرى أحضريها لي، فليس لدي المال الكثير لإحضار خادمة.

تسمع من خلف الباب وفي يدها فناجيل القهوة لتقديمها، والدمعات تجري في خدها الناعم لتمسحها بيدها وتدخل لتقديم القهوة.

تعود إلى واقعها ودموعها تتساقط لربما كانت حكايتها هكذا أو لعلها ابنة سلمى فهي أخذت بعمر الرابعة كابنتها، ستسألها عن اسم ابنتها لعلها تكون والدتها.

نام الجميع وهي لم تستطع النوم تلك الليلة، بالها مشغول وتفكيرها لم يتوقف حتى سمعت صوت أذان الفجر، فتوضأت وصلت وأغمضت عيناها لتذهب في سباتٍ عميق.

صباح يوم جديد وشمس قد تفردت في سمائها، ونورها قد أضاء أرضها وبشراً قد استيقظوا لأعمالهم ورقية لازالت نائمة، حتى ايقظتها وفاء.

وفاء: رقية،... رقية،... رقية!، استيقظِ، دوامكِ ابتدأ اليوم هيا يا عزيزتي.

رقية: دعيني قليلاً فقط أرجوكِ.

وفاء: لم يعد هنالك متسع من الوقت يجب أن تستعدي للذهاب.

تتذكر الدوام فتستيقظ مسرعة، وتهرع إلى الحمام لغسل وجهها وأسنانها وترتدي ثيابها للذهاب، وفي طريقهما تحدث رقية وفاء بما تفكر.

رقية: وفاء هل سمعتِ بقصة السيدة سلمى أمس، لقد حركت فيني شعور غريب، هل يمكننا معرفة اسم ابنتها؟

وفاء: هل تشعرين بأنها قد تكون أمك؟

رقية: لربما ذلك أو لعلها تعرف شيئاً قد يساعدني في معرفة أهلي.

وفاء: سنسأل هشام كي لا نثير مشاعرها أو نجعلها تشعر ببعض الأمل، والذي ربما لا يكون صحيحاً.

رقية: حسناً هل يمكن أن نسأله اليوم بعد عودتي من المركز؟

وفاء: نعم، ولكن لا تتأملي كثيراً يا رقيتي.

رقية: مفهوم يا مؤنستي.

تدخل المركز لتبدأ في دراستها.

لم يكونوا أطفال حجارة
لكنهم خطفوا
ولم يكسروا أو يجرحوا
لكنهم أُسروا
لا القتل يعرفهم ولا حتى
القتال لكنهم قُتلوا
ودمائهم قد سيلت وكأنها
نهرٌ
ألعابهم قد بعثرت هذا وإن
وجدوا
صهيون هنا قاتل بجدِ أمة
القلم
أطفالها أيتام بأسنان مكسرة
وكأنهم هرموا
حتى ابتسامتهم سرقت وكأنها
جرمٌ

لم يجدوا منزلاً يأوي ويراعهم
لكنهم دفنوا
حتى هنا طفلاً ينتظر أماً لكنها
ماتت
والطفل تابعها .... أماه أوينني لم
يبقى لي سكنٌ
حتى وإن طالت قاماتهم ألعابهم
حجراً
يرمي العدو هنا صهيون قاتلهم
برصاصة حرة
ماذا عساكم قد تكونوا بشراً أم
أنكم
شيطان في هيئة أناس للدم
شاربة
وبكاء أطفالنا إيقاعٌ لرقصتهم

وكأنهم لا يملكون ابناً رضيعاً
على أمه يبكي
أطفالهم بشراً وأطفالنا موتا
أطفالهم تدرس وبالعلم قد
تحيا
وأطفالنا في المدارس تقتلُ
وكأنها حجراً
الأم تصرخ طفلي عزيزي عند
الله ستحيا وهناك الملقى.

تدعوا الله في صلاتها " يا إلهي اجمعني بابنتي قبل وفاتي، أرجوك قر عيني بها، أو حتى يصلني خبر بحالها، أميتة هي أم حية، لا تدعني في حيرتي وأنت أرحم الراحمين "

تعطف سجادتها وتنهض لتنادي ابنتها ريم... تعالِ يا ابنتي لنضع طعام الغداء على وقت مجيئ إخوانكِ، وائل ولؤي.

ريم: حسناً أمي سآتي حالاً.

ريم فتاة في السادسة عشر زيتونة العينين وشعراً بلون العسل، تكبر أختها المفقودة بسنتين تدرس في مرحلة الثانوية.

وبمجرد انتهائهما من وضع الطعام يأتي الولدان من الخارج

وائل محامي في إحدى الشركات، ولؤي في سنته الأخيرة من دراسة الهندسة، يسلمان على والدتهما وأختهما، ومن ثمة يغيران ثيابهما ويأتيا لتناول الطعام.

وائل: كلما رأيت فتاة بعمر الرابعة عشر أتذكر أختنا الصغرى.

الأم: ليحفظها المولى أينما كانت ويغفر لوالدكما.

ريم: أتمنى لو نجدها لتكون أختي وصديقتي ونكون معاً دائماً.

الأم: سيأتيني الله بها أو بخبرٍ عنها.

تعود من المركز بعد تجربة جديدة عليها، مرهقة ومتحمسة في آنٍ واحد.

تدخل للمنزل تبتسم لوفاء، وتذهب سريعاً لغرفتها لتبديل ثيابها وتأدية صلاتها، ومن ثم تساعد وفاء لوضع الطعام وتخبرها عن جمال يومها وعن جميع تفاصيله.

رقية: وفاء... هل يمكنك الاتصال لهشام وسؤاله عن ذلك الموضوع.

وفاء: حسناً.

هاتفه يرن وهو نائماً يكتم الصوت دون رؤية اسم المتصل ويستمر بنومه، تخجل وفاء من معاودة الاتصال.

وفاء: إنه لا يجيب على هاتفه، سنعاود الاتصال إن لم يتصل لاحقاً.

رقية: حسناً.

وفاء: أخبريني يا رقية إن وجدت أهلك هل ستذهبين للعيش معهم؟

رقية: أظن ذلك، ولكن لكل حادث حديث.

وفاء: هيا ساعديني في غسل إناء الطعام.

رقية: بكل تأكيد.

في ٢٩/ ديسمبر / ٢٠٠٨

هناك بجانب الحرب وبين الصخور ومرتفعات الجبال، يقف عبد اللطيف بعدسة الكاميرا يسجل أحداث دموية إسرائيل على مواطني غزة، ينقل الحدث والحقيقة للشعب وللعالم، يريهم بشاعة المحتل وانعدام الإنسانية في هذا الصهيون، وكأنه عين العالم في غزة، يصور ويوثق كل لحظة عنف وكل استبداد وطغيان، وفجأة في لحظة مؤلمة تقوم قوى الصهيون وطائراته الجوية بقصف الإعلامي عبداللطيف مع كادره التصويري، لتخفي باستهدافها الصحفيين الحقيقة عن الشعوب وتخفي إثمها وجرائمها عن البشر، لكن الله يرى وستلقى عقابها عند المولى عز وجل.

يصل الخبر إلى أهله وعائلته فينهار قلب زوجته المسكينة خوفاً وحزناً، ابنتها خُطفت وهي بعمر الأربع السنوات، وكان أمل زوجها أن يلتقي ابنته قبل وفاته، ولكن قدر الله كان سابقاً لتصعد روحه إلى السماء، ويموت صحفياً آخر من قبل الصهيون.

يستيقظ من النوم ليصلي العصر، يرى هاتفه فيجد مكالمة فائتة من السيدة وفاء فيعاود الاتصال بها لمعرفة ما تريد.

بعد الرنة الثالثة تجيب، وفاء: مرحباً.

هشام: السلام عليكم، كيف حالكِ سيدة وفاء.

وفاء: وعليكم السلام، الحمدلله وأنت.

هشام: الحمدلله.

وفاء: لا أدري كيف أبدأ لك الموضوع، ولكن هل تعرف اسم ابنة السيدة سلمى المفقودة؟

هشام: لا أعرف، لكن إن أردتِ سأسألها.

وفاء: لا أريد سؤالها بشكل مباشر.

هشام: حسناً، سأحاول المعرفة دون سؤالها مباشرة.

وفاء: شكراً لك.

يذهب إلى الخارج فيجد أمامه السيدة سلمى يسلم عليها وتسأله عن أحوال الحركة وتقدمها فيبشرها ببعض الأخبار.

سلمى: عسى ربي يبشرني بابنتي أو بخبرٍ عنها.

هشام: سيدة سلمى، ما اسم ابنتك المختطفة؟

سلمى: رقية.

هشام: أتمنى أن تجديها أو أن تصلك بعض الأخبار عنها ولكن في أي عام خطفت؟

سلمى: في عام ٢٠٠٥، إن هي على قيد الحياة فسيكون عمرها ١٤ عاماً.

هشام: حسناً، إلى اللقاء يا خاله سلمى.

يتصل للسيدة وفاء وقد فهم مقصدها من السؤال.

هشام: السلام عليكم سيدة وفاء.

وفاء: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أهلاً هشام.

هشام: ابنتها المختطفة اسمها رقية وهي من مواليد ٢٠٠١ وتبلغ من العمر ١٤ سنة.

وفاء: هشام قد تكون رقية التي تعرفها هي الابنة المختطفة ولكننا لا نريد إعطائها أمل غير صحيح، سنجري فحصاً دون معرفتها أو معرفة السيدة سلمى، هل يمكنك مساعدتي؟

هشام: بالطبع ولكن سآخذ من أحد أخويها خصلة، هل تنفع؟

وفاء: بهذه السرعة جعلتهم أخويها، نعم ينفع.

هشام: إذاً اتفقنا.

تذهب وفاء لمساعدة رقية في دروسها دون إخبارها بشيء، وتأخذ خصلة من مشطها دون أن تشعر، وتخرج من الغرفة لتذهب إلى المشفى برفقة هشام.

هشام يرى لؤي يناديه ويسلم عليه ويخبره بأن يأتي معه إلى الحلاق، فيذهب لؤي مع هشام ويقص كلاً منهما شعره بتصفيفة مختلفة، وبمجرد انتهاء هشام من الحلاقة يأخذ خصلات من شعر لؤي المتساقط في رقبته دون أن يشعر، ويودعه ويذهب إلى وفاء.

يلتقيان أمام المشفى لتعطي الخصلات للمشفى في سبيل التأكد ويخبروها بإن تنتظر يوماً لخروج النتائج.

تذهب إلى البيت وهي تدعي الله بأن تكون سلمى هي والدة رقية.

يحل المساء ثقيل على قلب البعض

رقية تنتظر رد هشام أو معاودة الاتصال من وفاء.

وفاء تنتظر أن يمر اليوم حتى تذهب للمشفى لأخذ نتائج الفحص.

هشام يشعر بالفضول لمعرفة أهل رقية، وبالسعادة إن كانت الخالة سلمى هي أمها.

صفراء ومشعة وكأنها لهبٌ، تظهر بضوئها الساطع في الصباح، وترحل إلى المنتصف الآخر وقت حُمرتها عند الغروب، جميلة وفريدة تأتي بالخير وترحل للراحة.

مع زقزقة العصافير وصياح الديك، ينهض هشام للذهاب إلى المدرسة، وتصحو سلمى لتعد وجبة الصبوح والخبز الشامي الساخن لأولادها، وتستيقظ رقية بعد نوم متقطع بالتفكير؛ لتستعد للذهاب إلى المركز وعينيها تريد المزيد من النوم، أما وفاء فتغير ثيابها للذهاب إلى المشفى لرؤية نتيجة الفحص وقلبها يدق بقوة وكأنه طبول الحرب.

تستلم النتيجة والتوتر قد فاق حده، فتفتح الظرف بسرعة لتجد أن النتيجة.....

تتعرف على فتيات المركز، لكن الغالبية منهن كبيرات السن ممن لم يستطعن الدراسة؛ بسبب الحرب أو السفر المتكرر والنزوح فتجد صديقة مقاربة لها في السن تدعى ليلى، فتاة لطيفة توقفت عن الدراسة بسبب أنها كانت المعيلة لعائلتها بعد أن خطف أباها ولم يعرفوا عنه شيئاً لمدة خمس سنوات، حتى وصلهم خبر وفاته في سجون الاحتلال وسجنه لم يكن إلا بتهمة محاولة دهس جنديين إسرائيليين، تهمة باطلة ولكنهم يريدون تصفية المواطنين بطريقة أو بأخرى قتلاً أو خطفاً.

توقفت عن الدراسة لمدة الخمس سنوات ثم وجدت لها عملاً في إحدى المتاجر بالفترة الظهرية، فعادت للدراسة في المركز حتى تعود لمستواها الدراسي، تدرس في مستوى أعلى من رقية لكنها فتاة جيدة وتريد مساعدة رقية في دروسها.

....

تعد العصير لضيفتها وتضع بعض الحلويات وتقدمها بابتسامة رائعة.

سلمى: حللتِ أهلاً ووطئتِ سهلاً، أنرتِ منزلي يا ابنتي وفاء.

وفاء: وأهل المنزل ينعمون بالراحة والخير يا رب، مُنارٌ المنزل بأهله يا خالة سلمى.

سلمى: اشربي يا ابنتي العصير وبللي ريقك فيبدو بإنك تحملين خبراً وبسببه قد جف ريقك.

وفاء: في الواقع نعم لديّ لكِ خبراً، وأريد منك أن تتهيئي لسماعه.

سلمى: عساه خيراً، أخبريني بما لديكِ يا وفاء فأنا راضية بما هو مكتوب ومقدر.

وفاء: إنه خيراً إن شاء الله، لدي خبراً عن ابنتكِ المختطفة، فقد أخبرني هشام بأن اسمها رقية وعمرها يبلغ الرابعة عشر عاماً، وقصة ابنتك أثارت تفكير رقية التي تمكث عندي وأخبرتني بشكوكها ولم أرد إعطائكِ أملاً مزيفاً، أو إعطائها فجعلت هشام يسألكِ بطريقة ملتوية عن اسمها وعمرها وللتأكد أخذنا خصلة من شعر أبنكِ والمعذرة على ذلك ولكنا أردنا التأكد وعدم انتشار الخبر الغير مؤكد.

سلمى وعينيها ممتلئة بالسائل المالح وقلبها يخفق بشدة متلهفة ومنتظرة لوفاء حتى تكمل كلامها.

سلمى: أكملي يا وفاء فقلبي لم يعد يستطيع التحمل أكثر.

وفاء: فأكدت النتيجة صحة شكوكنا يا خالة سلمى ابنتكِ رقية التي تمكث معي.

تسجد لله شاكرة ودموعها تتساقط على وجنتيها الحمراوين من شدة التأثر "أشكرك يا ربي على إيجاد ابنتي بعد كل هذه السنوات فأملي بك كبير ولم ينقطع، الحمد لك يا خالقي على إيصالها لي بعد سنين الحرمان"، تضم وفاء وتشكرها من أعماق قلبها، ولجهودها وإيوائها عندها ولهشام ولمساعدتها وإخراجها من منزل الطغيان ذاك.

سلمى: وفاء خذيني إلى ابنتي فقلبي يريد رؤيتها، وأريد أن أضمها إلى حضني، أن أعطيها الحنان وأعوضها سنين الحرمان، مسكينة يا ابنتي كم عانيتي في حياتكِ.

وفاء: إنها الآن في المركز يا خالة ولكني سآخذك إلى منزلنا حتى ترينها فور عودتها.

سلمى: نعم هيا بنا.

انتهى وقت دوامها من المركز تمشي وهي تبتسم، وتتأمل السحاب في طريقها وحركة الأشجار واهتزازها مع هبوب الرياح، تتمنى لو أنها شجرة تعطي جمالاً للطبيعة وتنعش الهواء بالأكسجين، تصل إلى المنزل وهي نشيطة بفعل تأمل البيئة وجمال السماء، فترى أمامها وفاء بابتسامة فرحة، وترى السيدة سلمى بدموعٍ وعلى ملامحها السعادة والتأثر، فتشعر بأن تفكيرها كان صحيحاً وأن شكوكها كانت في محلها.

رقية: أاااا، وفاء هل؟... هل؟... هل هي؟... وفاء هل ما كنت أفكر فيه حقيقة؟!

تحتضنها دون رد وتنهمر دموعها كشلالاتٍ غزيرة المياه، فتصرخ رقية بحزنٍ أماه ودموعها لا تتوقف عن السقوط، تسحبها من حضنها لتراها وتحتضنها مجدداً وهي تردد أماه لقد اشتقت إليك أُمااااه... لقد تمنيتكِ دائماً، وتمنيت أن أحتضنك وأن أقول أمي وكم دعوت الله أن أراكِ وألتقيك.

بعد ساعات من اللقاء، ورقية لازالت في حضن والدتها يتحدثن عن جميع المواضيع بشكلٍ متداخل، ولكنه مع الشعور بالفرح لم يشعرن إلا بالرغبة في الحديث عن كل شيء.

لم يستطع تحمل فضوله أكثر فذهب إلى منزل السيدة وفاء بعد أن أتصلها كثيراً، ولم ترد على مكالماته.

يدق الباب فتفتح له وتخبره من خلف الباب بالخبر السعيد وبإن رقية ابنة السيدة سلمى وتشكره لمساعدتها، فيعود إلى البيت بقلب فرحاً حامداً لله على ذلك.

وتعود السيدة سلمى إلى البيت ومعها زهرتها الصغرى؛ لتشفي قلبها المكسور والحزين لعشرة سنين من الفقدان.

وتعرفها على إخوتها وأخواتها، وتبدأ حياتها الجديدة بالقرب من أهلها وبين أحبائها.

ومع كثر التصعيد والحرب في غزة والغارات الصهيونية تقرر السيدة سلمى السفر بأولادها إلى لبنان وستأخذ معها السيدة وفاء التي أصبحت كأختٍ لها.

الكثير من الرسائل المتبادلة بين الحينة والأخرى، ترسل من بيروت إلى غزة في ظروفاً مختلفة، وإحداها في عام ٢٠٢٠م.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

في هذا العام سأدخل إلى الجامعة وقد أخترت كلية الطب، وسأعود إلى غزة بمجرد انتهائي من دراسة الجامعة سأكون بإذن الله عوناً لكم في حركة مقاومتكم، وسننتصر على الصهاينة بإذن الله ونوقف من اضطهادهم وخبثهم وقتلهم لأبناء فلسطين الحرة، سأعود إلى وطني وسأكن فخراً له وطبيبةً تساعد المرضى وتقف في صفوف الحرب الأولى لإنقاذ وإسعاف الجرحى وسنلتقي بإذن الله.

ويأتي الجواب عليها من غزة إلى بيروت.

وعليكِ السلام ورحمة الله وبركاته.

لقد دخلت كلية الهندسة كما أخبرتكِ وسأدخل هذه السنة تخصص الميكاترونكس كي أفيد المقاومة في تصنيع المعدات، وأكن ذا فائدة لشعبي ووطني الحبيب، لنرفع من راية وطننا ونحيا به بعزة وحرية بين الأمم، وسأنتظركِ حتى تعودين وأراكِ أفضل طبيبة.

وتستمر الرسائل واحدة تلو الأخرى بمختلف الوسائل حتى أخذا رقم بعضهما، وفي إحدى الفترات طالت مدة انقطاع هشام عن التواصل بها واختفى واستمرت فترة اختفائه مدة طويلة.

بحثت رقية عن كل مصدر أو شخص يمكنه إعطائها معلومة أو خبراً يخص هشام، حتى أوصل لها أحد المعارف بعد ثلاثة أشهر من الانقطاع بإنه مخطوف لدى قوى الاحتلال، وكان ذلك بعد شهر من بدء الانتفاضة لحركة حماس في العام ٢٠٢٣ من شهر أكتوبر صبيحة يوم السبت الموافق ٢٢ ربيع الأول لعام ١٤٤٥ هجرية، وبعد شهراً من معرفتها بخبر اختطافه تعود إلى أرضها الحبيبة ووطنها الغالي فلسطين لتكون سنداً لأبناء وطنها، وطبيبة لجراحهم وتنتظر عودة غائبها الذي كان سبباً في إسلامها وتخلصها من الهلاك والطغيان، وسبباً في توصلها لأهلها بعد عشرة أعواماً من الغياب والحرمان.

إحدى الرسائل التي استمرت في كتابتها له أثناء غيابه في معتقلات الصهاينة.

السلام عليكم وأما بعد...

فقد أنهكتنا الحرب كثيراً وبلغ منا القتلى كماً هائلاً، هل أخبرك إلى الآن كم بلغ عدد القتلى ٣٢٥٦٩ قتيلاً وأبريائنا الذين لا يستطيعون حتى حمل بندقية أطفالنا قُتل منهم ١٩٣٢٤ طفلاً دون ذنب منهم أو حتى سبباً ليُقتلوا، هل أزيد لك الجراح والمآسي إخواننا في اللغة والدين أصبحوا أعداءً لنا، بل أُتهمنا بالإرهاب لدفاعنا عن ديننا وعن الأقصى، والآخرين من البشر من يمتلكون الإنسانية وحرية الرأي لا التبعية أيدونا بل وخرجوا لتظاهر من أجلنا، وبنوا عروبتنا يصرخون لماذا نقاوم!... بل يجب أن تبيدنا إسرائيل، وكأن لا حق لنا وكأننا في أرضهم وكأننا المحتلون نحن والآكلون لخيرات غيرنا، وأطفالنا لا روحاً لهم وأعراضنا التي تنتهك من صهيونٍ قذر لا تحرك إسلامهم ودينهم، وكأنهم آكلون من لحم خنزير ليطفئ غيرتهم، لن أطيل أكثر من هذا ولكن أتمنى أن تخرج بأسرع وقت، ولن أتركك سأنتظرك مهما طال غيابك.

آخر رسالة لم ترسل إليها....

أنهكتني الحروب لكن

عيناكِ كانت السلام

وتعبت يداي من الإصلاح

في هذه المكائن لكن
الرسائل لكِ كانت كضمادة
للجراح
طال غيابكِ وكأنه انتصارنا
الذي طال ابتعاده
هل ترين ما آلت إليه بلادنا
وكيف فعل بنا الصهيون
لكننا سنشد الوثاق وننطلق
سأراكِ قريباً ولربما أكون أول
جرحاكِ، فالحرب قد دقت طبولها
والنصر آتِ كما لقياكِ.

سأنتظركِ مهما طال غيابكِ.

تمت.

تتوالى
السنين ويكبر
الإنسان
ولا يبقى
شيئاً سوى
الذكريات
والعلم،
فأصنع لحياتك
ذكرى جميلة

• العنود مرفق